

## الفصل الثالث

المقاصد الكبرى

للآيات التي تعرض الخلق والكون

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ \* الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ \* رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل» رواه البخاري.

«إن الله تعالى يعرض الكون في كتابه على النحو الذي أسلفنا: ليتعرف العبد من النظر إليه على ربه

وخالقه وعلى صفاته تعالى.

وليكون حجة على وجوب تفرده تعالى بالألوهية والعبادة والطاعة والتشريع.

فيفرد الله تعالى بحقه الخالص.

وليكون حجة على أمر الآخرة وقيام الساعة فيوقن ويستعد ويعمل ويزهد فيما هاهنا.

وليعرف به أصالة الحق وامتداده .. فيوقن بما معه وأن الله تعالى ناصره.

وليأتنس به في عبادته لله تعالى .. هكذا يُعرض وهكذا يتلقاه المؤمن».

### مقدمة

وردت - في مساحة كبيرة من كتاب الله العزيز - الآيات التي تعرض خلق الإنسان ومراحل تكوينه ومراحل حياته، والكون من سماوات وأرض وبحار ومن مخلوقاته وكنوزه، ومن جبال وأنهار وبروج ونجوم وأشجار .. وهناك مقاصد هامة جداً من سوق هذه الآيات لا بد من تحديدها ومعرفتها.

\*\*\*

في هذا الفصل أردنا التعرف على المقصود من سوق الآيات التي تعرض مظاهر الخلق والكون لأنها تأتي ضمن سياق الرد على الكفار أو مناقشتهم أو وعظهم ..

وقد لا يفهم البعض الغرض من إيراد هذه الآيات - وليس المعنى التفصيلي للآية فقد يدركه - حتى أن البعض يظن أن السياق قد قطع وانتقل إلى موضوع آخر .. بينما هو في نفس الشأن يسوق الأدلة فيها ويوضحها للمخاطبين ويناقشهم ويرد عليهم ..

\*\*\*

وقد أوضحنا أن عرض آيات الخلق والكون في كتاب الله تعالى يهدف إلى عدة مقاصد .. منها:

١- الاستدلال بربوبية الله تعالى على ألوهيته ..

بمعنى أنه كما أنه هو الخالق الرازق فهي إذن المستحق للعبادة وحده؛ فيُحب وحده ويُطاع وحده ويُعظم وحده، وهذا هو معنى ( لا إله إلا الله).

٢- التعرف على الخالق تعالى والاستدلال على وجوده وعلى أسمائه وصفاته من خلال النظر في مخلوقاته تعالى ..

وقد وكان يمكن أن نضع هذا المقصد هو الأول لترتيب المعرفة ثم العبادة ولكن اخترنا تقديم العبادة جرياً على النسق القرآني أن هذه المعرفة مركوزة في الفطرة ويُطالب الناس بموجِّبها، ثم كلما زادت المعرفة زاد الخضوع لله تعالى وزادت هيئته في النفوس وطاعته سبحانه وتعالى.

٣- الاستدلال على اليوم الآخر ..

فكما عُرِضت هذه الآيات ردّاً على المشركين لإبطال شركهم فقد عُرِضت كذلك ردّاً على منكري البعث .. وذلك بعدة طرق:

الطريقة الأولى: الاستدلال بخلق الإنسان أول مرة على إمكان إعادته ..

الطريقة الثانية: الاستدلال بإنزال الله الماء من السماء وإحياء الأرض به بالنبات وأن هذه عملية إحياء من الموت وعملية إعادة للحياة مستمرة دائماً ومماثلة لما وعدتم به من البعث ..

الطريقة الثالثة: الاستدلال بخلق ما هو أَوْلَى وأعظم خلقاً من الإنسان - الذي يستعظمون بعثه - وهو خلق السماوات والأرض.

الطريقة الرابعة: الاستدلال بالحكمة.

الطريقة الخامسة: تعداد ما خلقه الله تعالى في هذه الحياة على أنه نِعَم، وأن هذه النعم تستوجب الشكر، ثم هناك من يشكر ومن لا يشكر؛ فكيف يستويان؟. فلا بد أن يكون للمنعِم جزاءه لكل منهما.  
الطريقة السادسة: الاستدلال بعموم القدرة المستفاد من النظر في خلقه تعالى وقدرته الباهرة في خلقه.

الطريقة السابعة: الاستدلال بعموم العلم المستدل عليه أيضا بهذا الخلق.

\*\*\*

- مع الإشارة إلى قاعدة هامة وهي أن القرآن كما يورد البرهان العقلي الباهر للاستدلال فإنه يلحف معه ويُقرن به التخويف والوعظ ليكون الخطاب شاملاً للعقل والوجدان معاً ..  
فقد يكون الخلل في افتقاد الاستدلال الصحيح .. كما قد يكون في غفلة القلب وعناده ..  
فكان الخطاب في الجانبين لتكون هناك جدية في أخذ الموضوع وتناوله ..  
- ومع الإشارة كذلك إلى أن كثيراً من سياقات عرض هذه الآيات تساق للقاصدين الأول والثالث .. يعني توحيد الله تعالى في العبادة، والاستدلال على اليوم الآخر.

\*\*\*

٤- المقصد الرابع من ذكر آيات الكون هو: معرفة تعبد الكون لله ومعرفته له وخضوعه .. مع الاستدلال على صحة هذا الدين وصدق الوعد والبشارة بالتمكين القادم له.  
٥- المقصد الخامس: هو الإيناس في التعبد لله تعالى وسط كون زاهر ومشغول بالعبودية.  
مع ذكر بعض علامات النبوة.  
ثم ذكرنا كلمة أخيرة جامعة في هذا الشأن ..

والله تعالى الموفق للحق والصواب ..

## المقصد الأول

تساق آيات الكون لغرض عرض ربوبية الله تعالى وقدرته للاستدلال بها على وجوب

إفراده تعالى بالعبادة والطاعة

فهو الخالق وهو المالك وهو الرازق وهو الذي له المعاد وبيده الملك، وهو الرب القائم على إصلاح خلقه وتربيتهم، وهذا معنى الربوبية ..

وبالتالي فهي أدلة على استحقاقه وحده للعبادة وهذا هو معنى الإله، فالإله هو: المألوه، يعني المعبود المطاع المحبوب المعظم.

وقد يقر الإنسان بربوبية الله تعالى لكن يشرك معه غيره في العبادة، وعلى هذا كان صراع الأنبياء مع أممهم وليس على مجرد الإقرار بأن الله وحده هو الخالق الرازق فالناس مفطورون على هذا الإقرار، والرسول إنما طالبوا الخلق بموجب هذا الإقرار بأن يعبدوا الله تعالى وحده ويتركوا عبادة ما سواه وطاعة ما سواه وتعظيم وحب ما سواه، وأن يتركوا التوجه إلى وقصد ما سواه، وإفراده تعالى بهذه الأعمال والتعبادات بلا شريك، وفي هذا الشأن تساق أدلة الربوبية .. فالله يقول: ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧]، ويقول: ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ (٧) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الدخان: ٧-٨]، فالأولى للربوبية والثانية للألوهية المترتبة عليها.

ويحتج الله تعالى على الكفار بمعرفتهم وإقرارهم بربوبية الله وعموم خلقه ورزقه على أنه لا يعبد سواه، ولذلك تعقب هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أو ﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾، والمعنى متقارب بأنه: فكيف يُصرفون بعد هذا الإقرار عن عبادة الله تعالى وحده إلى عبادة ما سواه؛ معه أو من دونه؟.

أو تعقب بقوله: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ يعني: فتركوا الشرك لما علمتم من الحججة من شهادتكم وعلمكم وفطرتكم.

أو بقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَنْقُونَ ﴾ يعني: تتقون الشرك.

أو بقوله تعالى: ﴿ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾، وهذا التعبير تستخدمه العرب في ذهاب العقل يعني أنه من سحر فجن، وبهذا كانوا يتهمون الأنبياء بقولهم - كما اتهموا صالحاً: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴾، على الوجه الراجح من وجهي تأويلها.

فيسألهم ربنا سبحانه بعد تقريرهم بربوبيته هذا السؤال .. يعني أين ذهبت عقولكم حتى تقروا بخلقكم ورزقكم وإياكم وعموم ملكه ثم تعبدون غيره وتشركون معه في حقه الخالص من العبادة سواه؟.

\*\*\*

وبالنظر نجد الاحتجاج يدور حول:

١- الخلق والإيجاد من العدم والملك التام.

٢- الرزق والقيومية على خلقه.

٣- الرجوع لرب العالمين للحساب.

وتُذكر هذه الأمور إما إجمالاً وإما بتفصيل .. وأحياناً يفرد سبحانه الاستدلال بأحدها فقط كالخلق فقط أو الملك فقط أو الرزق فقط أو الرجوع لله تعالى فقط.

وأحياناً تجمع الآيات بين أكثر من وجه من أوجه هذه الاستدلالات، فتجتمع بعض الآيات بين الخلق والرزق أو الخلق والملك أو الخلق ونفي الملك عن غيره أو الخلق والرجوع إلى الله تعالى أو غير ذلك وهذا تفصيلها:

١- الاحتجاج بأنه الخالق، وتذكر الآيات الخلق إما:

أ- إجمالاً: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]، يعني: فكيف تُصرفون عن عبادته إلى عبادة من سواه، ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

ب- أو على وجه التفصيل، فيفصل بعض خلقه تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنكبوت: ٦١]، ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

ذِكْرُ سبب الحمد في مثل هذه الآيات:

والحمد هنا لظهورك بالحجة عليهم والزامهم إياها، وللتعريض بحمده لربه أنه ليس مثلهم وأنه عُصِمَ من هذه الضلالة، يقول البيضاوي: «﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾، لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غيره بحيث اضطروا إلى إذاعته: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إلزامهم وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان معتقدتهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك يلزمهم»<sup>(١)</sup>.

ويقول في آية مشابهة في موضع آخر: «﴿لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾، معترفين بأنه الموجد للممكنات بأسرها أصولها وفروعها ثم إنهم يشركون به بعض مخلوقاته الذي لا يقدر على شيء من ذلك ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، على ما عصمك من مثل هذه الضلالة أو على تصديقك وإظهار حجتك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فيتناقضون حيث يقرون بأنه المبدئ لكل ما عدها ثم إنهم يشركون به الصنم، وقيل لا يعقلون ما تريد بتحميمك عند مقالهم»<sup>(٢)</sup>.

أمثلة على الاحتجاج بالخلق لإفراده تعالى بالعبادة:

في سورة غافر:

وانظر إلى هذه الآيات التي تفصل خلق الله للكون وللإنسان وتطالبنا بإفراده بالألوهية والعبادة ثم تأمر رسول الله بإعلان هذا التوحيد والإسلام .. فهي في غاية الوضوح.

(١) تفسير البيضاوي، ج ١، ص ٣٥٠.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٢.

يقول تعالى في سورة غافر: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْيَلَّ لَيْسَكُونُوا فِيهِ وَالتَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ، ثم يربط بين الخلق وبين إفراده بالألوهية والعبادة فيقول: ﴿ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا يُعْبَدُونَ ﴾ [غافر: ٦١ - ٦٣]، ويؤفك يعني يُصرف عن توحيد ربه وعبادته.

ثم يذكر جملة أخرى من الخلق فيقول: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَكْرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، ثم يقول بعدها: ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ أَحْمَدُهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وبناء على هذا يأمر نبيه بهذا الإعلان بالتوحيد والإسلام: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، ثم يذكر جملة أخرى من تفصيل خلقه: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكَوُنُوا شُبُهًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلْيَبْلُغُوا أَجْلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [غافر: ٦٤ - ٦٨].

ثم ينعى على المشركين جانبي الشرك عندهم؛ جانب الخبر وجانب العمل، فينعى عليهم: أولاً: تكذيبهم وجدالهم. ثانياً: شركهم في العبادة.

فيقول تعالى في شأن التكذيب: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ (١٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَإِذَا أُرْسِلُوا بِهِ رَسُولًا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي آصْنَافِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ (٢١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ ، ثم يقول في شأن الشرك العملي في العبادة: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْ مَا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٩ - ٧٤].

### مثال آخر في سورة الأنعام:

وانظر إلى آيات الأنعام: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (١٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ، فيعرفوا الغاية من الخلق والغاية من هذا التفصيل: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مَخْرُجًا مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّيْحَانُ مُمِثَّلًا مِنْهَا وَعَيْرٌ مُنْتَبِهَةٌ أَنْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٥ - ٩٩].

ثم ينعى عليهم الشرك في العبادة ثم الشرك في وصف رب العالمين بانخاذ الولد سواء من العرب الذين اعتقدوا أن الملائكة بنات الله أو من النصارى الذين اعتقدوا بنوة المسيح: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْإِنِّ

وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُحْبَكَنَّهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وُلْدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ يَكْتُبُ شَيْءٌ عَالِمٌ ﴿١٠١﴾، ثم يربط تعالى بين تفرده بالخلق وتفرده بالالوهية بموجب هذا فيقول على وجه العموم: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠٢].

- وفي موطن آخر في الأنعام يربط سبحانه بين تفرده بالخلق وبين تفرده بالطاعة وينعى على المشركين شركهم به في التشريع والتحليل والتحرير فيقول سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِغْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].  
فالله هو الذي ﴿ذَرَأَ﴾ الحرث والأنعام بلا شريك في خلقه لهم، فكيف يكون لسواه نصيب وله سبحانه نصيب؟!.

### مثال ثالث في سورة الأنعام أيضًا:

وفي تفصيل أكثر يقول تعالى في نفس الشأن وفي نفس السورة: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿١١٤﴾ ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿١١٥﴾ ﴿ثَمِينَةَ أَرْزَاقٍ مِنَ الْبَقَرِ إِنِّي أَنبَيْتُ وَإِنِّي أُنَبِّئُ قُلُوبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا قُلْ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿١١٦﴾ ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أُنثَىٰ تَبَعُونَ يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١١٧﴾ ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أُمَّةٍ أُنثَىٰ تَبَعُونَ أَمْ لِلْإِنسَانِ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهِ إِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤ - ١٤٦].

فالذي أنشأ الجنات المعروشات .. بيد البشر، وغير المعروشات .. فلم يتدخل فيها أحد، والذي أنشأ الأنعام الحمولة منها .. عالية الظهر المرتفعة كالخيل والإبل، والفُرس .. القريبة من الأرض كالغنم والمعز .. الذي أنشأ هذا وذاك هو رب العالمين .. وبالتالي فهو الذي يملك حق الأمر والنهي والتحليل والتحرير، وله على خلقه حق الطاعة وأن يُفرد بها سبحانه وتعالى .. فلا يتلقوا تشريعاً ولا قانوناً في أي شأن من الشؤون من غيره سبحانه .. وهذا هو معنى النهي عن اتباع خطوات الشيطان في هذه الآيات ..

وجميع المفسرين على أن خطوات الشيطان في هذا الموضع ليست في المعصية المجردة بل هو نهى عن اتباع خطواته في تحليل ما حرم أو تحريم ما أحل سواء على وجه التقرب له تعالى أو على غيره من الوجوه، وهو نفس تفسير آية البقرة: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا وَمَا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿١١٨﴾ ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوَىٰ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ ﴿١١٩﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَيَقُولُنَّ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٢٠﴾ ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَدْعُو بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعْوًا وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَنْهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿١٢١﴾ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿١٢٢﴾ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالذَّمَّ وَلَحْمَ الْخنزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ بِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١٢٣﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيُسْرَتُونَ بِهِ تَمُنَّا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ

الْقَيْمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ﴿١٧٧﴾ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٨﴾ ذَلِكَ يَأْتِيَنَّ اللَّهُ نَازِلًا مِّنَ السَّمَاءِ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٩﴾ [البقرة: ١٦٨-١٧٦].

فمن تلقى من غيره ورضي شريعة غير شريعته فقد أشرك به سبحانه.

\*\*\*

٢- أو تذكر الآيات ملك الله تعالى لكل شيء: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣]، فالتسبيح تنزيه عن الشرك سواء الشرك في العبادة أو الشرك في الاعتقاد: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

\*\*\*

٣- أو تنفي الملك عن غيره لإبطال الشرك من جميع وجوهه ومبرراته:

حتى قال ابن القيم وغيره أن هذه الآية تقطع شجرة الشرك وعرقها من القلب، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٢-٢٣].

يقول رحمه الله تعالى: «فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا من فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريد عابده منه، فإن لم يكن مالكا كان شريكاً للمالك، فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده؛ فنفي سبحانه المراتب الأربع نفيًا مترتبًا متنقلًا من الأعلى إلى ما دونه فنفي الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يظنها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهي الشفاعة بإذنه؛ فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً ونجاة وتجريدًا للتوحيد وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها، والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحت وتضمنه له ويظنون في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية.

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك وما عابه القرآن وذمه، وقع فيه وأقره ودعا إليه وصوبه وحسنه وهو لا يعرف أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية أو نظيره أو شر منه أو دونه فينتقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه ويعود المعروف منكراً والمنكر معروفاً والبدعة سنة والسنة بدعة ويكفر الرجل بمحض الإيذان وتجريد التوحيد ويبدع بتجريد متابعة الرسول ومفارقة الأهواء والبدع ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عياناً والله المستعان»<sup>(١)</sup>.

\*\*\*



٨- أو تجمع الآيات بين الرزق والملئك: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ يعني: الشرك فتركوه، ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ يعني: عن عبادة الله وتوحيده، كذالك حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني: لا يوحدون الله ولا يفرّدونه بحقه الخاص جزاء على فسقهم فلم يروا هذه الأدلة بقلوبهم فعموا وصرّفوا عنها.

\*\*\*

٩- أو تجمع بين الخلق والرزق: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿١١﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ أَرَادَ أَنْ يَنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْحِلُهُ مِنَ السَّمَاءِ بِمَا يَشَاءُ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [النبوة: ٦١ - ٦٣]، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣].

\*\*\*

١٠- الإستدلال بأنه الخالق والرازق وإليه المرجع فتجمع بين الأمور الثلاثة: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ بِكُمْ ذَلِكَ مَن شِئْتُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٤٠].

\*\*\*

فهذه من أعظم مقاصد إيراد هذه الآيات.

فإن الرب هو الخالق الرازق المدبر القائم بشئون خلقه وإصلاح أحوالهم.

وأما الإله فهو الذي يتأله قلبك حقاً كان - وهو الله - أو باطلاً - وهو ما دونه - ولهذا مع إقرار الإنسان بربوبية الله قد يتعلق قلبه بما سواه حتى بهواه:

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَعَجَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجن: ٢٣]، ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣].

ولهذا كان إنكار المشركين لإفراد الله بالألوهية مع أنهم لم ينكروا ربوبيته لهم كما سبق، فقالوا:

﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَجِدًّا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥].

نظرة سريعة على عدة أمثلة لهذا المقصد ولهذا الاحتجاج

(الاحتجاج بخلق الله ورزقه وأن المرجع إليه على وجوب إفراده بالتأله والحب والطاعة والتعظيم)

١- ولهذا يحتج الله عليهم في كل آية في سورة النمل:

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ ثم سأل سبحانه: ﴿أَوَلَمْ مَعِ اللَّهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ (١٠) ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ ثم سألهم: ﴿أَوَلَمْ مَعِ اللَّهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١١) ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خَلْقَاءَ الْأَرْضِ﴾ ثم سألهم: ﴿أَوَلَمْ مَعِ اللَّهُ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٢) ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ ثم يقررهم: ﴿أَوَلَمْ مَعِ اللَّهُ تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٣) ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم يسألهم ويقررهم: ﴿أَوَلَمْ مَعِ اللَّهُ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (النمل: ٦٠ - ٦٤).

بمعنى أإله مع الله فعل هذا؟ أو إله مع الله تعبدون؟.

يقول شيخ الإسلام: «أي إله مع الله فعل هذا؟ وهذا استفهام إنكار، وهم مقرون بأنه لم يفعل هذا إله آخر مع الله، ومن قال من المفسرين أن المراد هل مع الله إله آخر فقد غلط فإنهم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى كما قال تعالى: ﴿أَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلهةً أُخْرَى﴾، وقال تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلهتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، وقال تعالى عنهم: ﴿اجْعَلْ لآلهةِ الْإِنْسَانِ وَحِدًا إِنَّا هَذَا لَشَيْءٌ مُجَابٌ﴾.

وكانوا معترفين بأن آلهتهم لم تشارك الله في خلق السموات والأرض ولا خلق شيء بل كانوا يتخذونهم شفعاء ووسائط كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾، وقال عن صاحب يس: ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلهةً إِنْ يَرِدِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنْهُ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِليٌّ وَلَا سَفِيحٌ لَعَلَّهُمْ يَنْفَقُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وِليٍّ وَلَا سَفِيحٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾، وقال: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنِ ظَهِيرٌ﴾، فنفى عما سواه كل ما يتعلق به المشركون فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط من الملك أو يكون عوناً لله ولم يبق إلا الشفاعة فيبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (١).

ويقول الحافظ ابن كثير: «أي إله مع الله يُعبد وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به أيضًا أنه الخالق الرازق، ومن المفسرين من يقول معنى قوله: ﴿أَوَلَمْ مَعِ اللَّهُ﴾، فعل هذا وهو يرجع إلى معنى الأول لأن تقدير الجواب أنهم يقولون ليس ثم أحد فعل هذا معه بل هو المتفرد به، فيقال فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والرزق والتدبير؟ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ (٢).

(١) مجموع الفتاوى، ج ٧، ص ٧٦ - ٧٧

(٢) أما قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَعْوَةُ اللَّهِ النَّاسَ لَعَلَّكُمْ تُفْسِدُونَ﴾ يعني هَدَمَتْ صَوْبَهُمْ وَيَبَعُ وَصَلَاتٍ وَمَسْجِدٍ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَيَضْرِبُونَ اللَّهُ مِنْ بَصُرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿(الحج: ٤٠)﴾

٢- وانظر إلى مثل هذه الآيات في الاحتجاج البدهي الفطري: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۗ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قرش: ٣-٤]، هكذا يحتج عليهم برزقه المادي والمعنوي لإفراجه بالعبادة، فمعنى العبادة هنا ليس مجرد الأداء بل إفراجه تعالى بها لأن على هذا كانت الخصومة والصراع بين رسول الله وقومه.

٣- ﴿وَمَا آخَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحَكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، هذه هي العبادة بقبول الشرائع، ثم ذكر موجب ومبرر هذه الطاعة: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۗ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٠-١١].

٤- وانظر إلى تعليمه إيانا ربوبيته وملكوته وألوهيته الحقّة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ سَرِّ الْأَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوسَّوْسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْغِيظِ وَالنَّكَاسِ﴾ [سورة الناس].

٥- وانظر إلى احتجاج إبراهيم عليه السلام في إعلان تحنّفه وتركه للشرك وبراءته منه، ذكر توحيد ربه وذكر معه موجب هذا التوحيد فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، فذكر توجيه وجهه لله وحده وأنه لن يشرك به شيئاً، وأن موجب هذا هو أن الله هو الذي فطر السماوات والأرض، وكان عليه السلام في هذا الاستدلال مناظراً لقومه كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله، فكان هذا منه توجيهاً للاستدلال على التوحيد.

٦- وانظر إلى عرض آيات الخلق في سورة البقرة: ﴿إِنَّا فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ وَاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

سبق قبلها: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّهُ وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وأعقب بعدها بالانحراف عن موجبها من التعبد لله وحده بالحب الخالص: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

= فهذا احتجاج عظيم وبيان لمدى جرم المشركين بانهم يوجهون ويعبدون من يعلن ربوبية الله ويلتزم بموجبها من إفراجه بالعبادة وبحقه الخالص. فهذا بيان لبشاعة موقف المشركين، وأنهم كأنهم يجحدون ربوبية الله لهم وخلقهم لهم ورزقه إياهم. وعلى هذا أحد أوجه آية الواقعة: ﴿تَحْنُ خَلْقَتَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧]، فعبادتهم لغيره كأنهم يجحدون خلقه إياهم، بينما هم لا يجحدون هذا كما توضح هذا آيات أخرى كثيرة لكن لما عبدوا غيره فكانهم جحدوا هذه القطرة لأنهم لم يعملوا بموجبها، فهذا بيان لبشاعة الجريمة.

يقول الإمام البيضاوي: «﴿تَحْنُ خَلْقَتَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ بالخلق متيقنين محققين للتصديق بالأعمال الدالة عليه أو بالبعث فإن من قدر على الإبداء قدر على الإعادة». تفسير البيضاوي ج ١، ص ٢٨٩.

فإنه لا يُعبد إلا من خلق ورزق فإذا لم تؤدّ العبادة لمن انفرد بالخلق والملك والرزق فكانت تجحد هذا، وعبادتك لغيره (جساً أو تعظيماً أو طاعة في تشريع أو ..) فكانت جعلته خالفاً رازقاً أو أقررت له بهذا طالما أقررت له بحق من حقوق الله الخالصة في العمل والعبادة، وفي هذا آيات التوبة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَرْكَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

يقول القرطبي وغيره: «قوله تعالى: ﴿أَرْكَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال أهل المعاني: جعلوا أحبارهم ورهبانهم كالأرباب حيث أطاعوهم في كل شيء». تفسير القرطبي ج ٨، ص ١١٠.

لا أنهم يعتقدون أنهم خالقون أو رازقون، ولم يتسكوا لهم، بل تعبدوا بالنسك للمسيح وأمه، أما في الأبحار والرهبان فإنما صرفوا لهم حق الطاعة فيما يشرعون فذكر في الآية نوعين من العبادة: النسك والطاعة في تشريع.

٧- وانظر إلى آيات سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا ۖ﴾، أعقبت: ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١١١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۖ﴾، والتسبيح تنزيه عن الشرك وعن ما لا يليق من الوصف كأن يكون خلق الخلق سدى بلا حكمة، ثم أعقبوا تنزيههم لربهم قيامهم بالتوجه إليه بالتوحيد والإيمان: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩٣].

فكان الدافع لهذا الإيمان هو هذا التفكير في خلق رب العالمين ..

\*\*\*

٨- وانظر إلى معرفة الهدهد بموجب التعبد فأورد صفات لرب العالمين وأفعال لربوبيته تقتضي وجوب إفراده بالعبادة: ﴿الَّذِينَ يَخْرُجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۗ﴾ [النمل: ٢٥].

\*\*\*

٩- وجاء في السنة هذا المأخذ الفطري في الاستدلال ..

فقد روى مسلم في صحيحه حديث ضمام بن ثعلبة الحشني قال الإمام مسلم: حدثني عمرو بن محمد بن بكير الناقد حدثنا هاشم بن القاسم أبو النضر حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس بن مالك قال: نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك؟ قال: «صدق»، قال: فمن خلق السماء؟ قال: «الله»، قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «الله»، قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: «الله»، قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال الله أرسلك؟ قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا. قال: «صدق»، قال: فبالذي أرسلك الله أمرك بهذا؟ قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة أموالنا. قال: «صدق»، قال: فبالذي أرسلك الله أمرك بهذا؟ قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا. قال: «صدق»، قال: فبالذي أرسلك الله أمرك بهذا؟ قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً. قال: «صدق»، قال: ثم ولي. قال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن. فقال النبي ﷺ: «لئن صدق ليدخلن الجنة»<sup>(١)</sup>.

فكان استدلال ضمام رضي الله عنه بأن الله خالق السماء والأرض والجبال وبالتالي فيعبد وحده ويصدق رسوله ويتبع.

\*\*\*



ثم يعلق على شركهم ويوضح زيف ما اتخذوا من آلهة وعدم استحقاقهم العبادة بل هم مربوبون مخلوقون مثلهم، والكل عبيد رب العالمين: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠].

ثم يعني على المشركين عند موتهم، ويكتهم يوم القيامة ويعلن تفرغهم وتوبيخهم: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنتُمْ تَشْفُقُونَ فَيَهْمُ قَالَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْآخِرَىٰ أَلْيَوْمَ وَالسَّوَاءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّوهُمْ الْمَلٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا السَّلٰمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَّغْنَاكَ اللَّهُ عَلِيمًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ فَأَدْحُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَوْتَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٧-٢٩].

ويذكر الطيبين الذين قاموا بالتوحيد وحقوقه: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَّ لِدَارٍ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّوهُمْ الْمَلٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلٰمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٠-٣٢].

ثم يذكر أحد حجج المشركين ويرد عليهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلٰغُ الْمُبِينُ﴾، فيذكر أنهم فهموا أن الله تعالى شاء ما يفعلون ورضيه منهم لأنه لم يغيره عليهم بعذاب قدرى ينزل عليهم .. فاحتج عليهم سبحانه بأنه إن لم ينكر عليهم قدرًا فقد أنكر عليهم شرعًا من خلال الرسالة، وكذلك قد أنكر على من قبلهم - ممن عذبوا - نفس الجريمة ثم أنكر عليهم قدرًا بهلاك عام وعذاب استئصال حتى صاروا أحاديث ركبان، وهم يفعلون نفس الجريمة فليحذروا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنَهُم مَّنْ هَدَىٰ اللَّهُ وَمِنَهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلٰلَةُ فسيروا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٥-٣٦].

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: «ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارها لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكنتنا منه قال الله تعالى رادًا عليهم شبهتهم: ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلٰغُ الْمُبِينُ﴾ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ونهاكم عنه أكد النهي وبعث في كل أمة أي في كل قرن وطائفة رسولاً وكلهم يدعون إلى عبادة الله وينهون عن عبادة ما سواه: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغرب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَسَلِّ مِّنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ أَجْعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمٰنِ ءِالٰهَةً يُعْبَدُونَ﴾، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، فيكف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾، فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدرًا فلا حجة لهم فيها لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة وهو لا يرضى لعباده الكفر وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة.



وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْتَكُمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦-٧٥﴾ [النحل: ٧٥-٧٦].

ثم يذكر جملة أخرى من نعمه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَى مِئَةٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ ﴿٨١﴾، ثم يطالبنا بموجب هذه النعم من التسليم له .. فيقول تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ﴾ [النحل: ٧٨-٨١].

وهذا التسليم لا يكون إلا بقبول حكمه والإخلاص له بإفراده به وبعبادته؛ فالإسلام يتضمن معنيين:  
١- الاستسلام لله، وهذا لا يتحقق إلا بقبول الأحكام منه سبحانه.

٢- الإخلاص له، بمعنى أن يكون هذا الاستسلام لله لا لغيره، فيكون مجموع المعنيين هو: (الاستسلام لله وحده) وذلك بقبول حكمه ورفض حكم وشرع من سواه، والتوجه بالعبادات والنسك له وحده.

ثم ينعي عليهم جحودهم مرة أخرى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْفُرُوهَا أَلَكْفُورُونَ﴾ [النحل: ٨٣].

ثم يقول مع صبر هذا الشرك .. من المشركين ومن أشركوا بهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦].

ثم يذكر تعالى أمره بمكارم الأخلاق وهي من حقوق التوحيد وأخلاقيات لا إله إلا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

ثم ينهي تعالى عن نقض العهود عموماً، وخصوصاً في زمن الاستضعاف حتى لا يصدوا عن سبيل الله، وأعظم العهود العهد مع الله ومع نبيه بالإسلام والتوحيد فلا يرتد عنه، وبعض المفسرين يجعل هذا هو المقصود أساساً بالآية بمعنى لا يحملنكم قلة عددكم أنتم المسلمون - كأمة - أمام المشركين الأكثر عدداً، وهذا معنى الآية: ﴿أَنْ تَكُونُوا﴾ يعني بسبب كون ﴿أُمَّة﴾ يعني: المشركين ﴿أَرْبَىٰ﴾ أكثر عدداً ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ وهم المسلمون القلة والمستضعفون في مكة، فلا يحملنكم هذا على نكث عهدكم مع رسوله بالإسلام والتوحيد خوفاً وانهمازاً أمام المشركين فتهلكوا من جانب وتسيبون في صد الناس عن هذا الدين لما يروا خروج من دخل فيه، أو تسنوا للناس سنة الارتداد عن هذا الدين.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَقَتْ غُرْلُهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكُنَّا نَسْخُدُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلَا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يُلُوكُمْ اللَّهُ بِئِهِ، وَلِيَبْتَلِيَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْنَأَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا

نَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[النحل: ٩١-٩٦].﴾

يقول النسفي<sup>(١)</sup>: « ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾، هي البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ ﴾ أيان البيعة ﴿ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ بعد توثيقها باسم الله، وأكد ووكد لغتان فصيحتان والأصل الواو والهمزة بدل منها ﴿ وَقَدْ جَعَلْتَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ شاهداً ورقيباً لأن الكفيل مراد لحال المكفول به مهيمن عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ من البر والحنث فيجازيكم به ﴿ وَلَا تَكُونُوا ﴾ في نقض الأيمان ﴿ كَأَلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ كالمرأة التي أنحت على غزلها بعد ان أحكمته وأبرمته فجعلته ﴿ أَنْكَثًا ﴾ جمع نكث وهو ما ينكث قتله ﴿ نَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ ﴾ حال كأنكأنا ﴿ دَخَلًا ﴾ أحد مفعولي تتخذ أي ولا تنقضوا أيمانكم متخذها دخلاً بينكم أي مفسدة وخيانة ﴿ أَنْ تَكُونُ أُمَّةٌ ﴾ بسبب أن تكون أمة يعني جماعة قريش ﴿ هِيَ أَرَبِيٌّ ﴾ هي أزيد عدداً وأوفر مالاً ﴿ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ من جماعة المؤمنين، هي أربي: مبتدأ وخبر في موضع الرفع صفة لأمة وأمة فاعل ﴿ تَكُونُ ﴾ وهي تامة وهي ليست بفصل لوقوعها بين نكرتين ﴿ إِنَّمَا يَبْتَلُوا اللَّهَ بِهٖ ﴾ الضمير للمصدر أي إنما يختبركم بكونهم أربي لينظر أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما وكدتهم من أيان البيعة لرسول الله ﷺ أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقلة المؤمنين وفقيرهم ﴿ وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ إذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب، وفيه تحذير عن مخالفة ملة الإسلام ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ حنيفة مسلمة ﴿ وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ من علم منه اختيار الضلالة ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ من علم منه اختيار الهداية ﴿ وَلَنَشْتَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يوم القيامة فتجزون به ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ كرر النهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً بينهم تأكيداً عليهم وإظهار العظمة ﴿ فَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ فتزل أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها عليها وإنما وحدت القدم ونكّرت لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن تثبت عليه فكيف بأقدام كثيرة ﴿ وَتَذُوقُوا السُّوءَ ﴾ في الدنيا ﴿ بِمَا صَدَدْتُمْ ﴾ بصدودكم عن سبيل الله وغيرهم يستنون بها ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ في الآخرة ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا ﴾ ولا تستبدلوا بعهد الله وبيعة رسول الله ﷺ ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ عرضاً من الدنيا يسيراً، كان قومًا ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين ولما كانوا يعدونهم إن رجعوا من المواعيد أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ فبثتهم الله ﴿ إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ من ثواب الآخرة ﴿ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ من أعراض الدنيا ﴿ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ من خزائن رحمته ﴿ بَاقٍ ﴾ لا ينفد ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُ ﴾ وبالنون مكى وعاصم ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ على أذى المشركين ومشاق الإسلام ﴿ أَجْرَهُمْ ﴾

(١) قد أوردنا نص تفسيره لهذه الآيات لانطباقها على زماننا لاستضعاف الإسلام وأهله، واحتياجنا الشديد الى تدبرها.

بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ ﴿ مَنْ مَبْهُمٌ يَتَنَاوَلُ النُّوعِينَ إِلَّا أَنْ ظَاهِرَهُ لِلذَّكُورِ فَبَيْنَ بَقُولِهِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ لِيَعْمَ الْمَوْعِدَ النُّوعِينَ ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ شرط الإيمان لأن أعمال الكفار غير معتد بها» ا.هـ (١).

ثم يستطرد السياق في اتهامهم لرسول الله بالكذب على الله وافتراء الرسالة، وأوضح تعالى أن المفترى الكذب على الله هو من تمس أولاً الكذب على خلقه، وأنتم تعلمون أنه أصدقكم، فمن يدع الكذب على الناس، فتركه للكذب على الله تعالى أولى .. فهو حرى بهذا، ثم بين أن الكاذب حقاً من ارتد عن هذا الدين .. فاستطرد السياق فيمن ارتد عن هذا الدين، وأن الردة عنه أعظم الكذب لأنهم يُضْمَنُونَ رَدَّتْهُمْ أَنَّهُمْ يَشْهَدُونَ لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْبَطْلَانِ وَأَنَّهُمْ لَوْلَا ذَلِكَ لَمَا ارْتَدَوْا .. ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [النحل: ١٥-١٠٧].

وبعد ذلك يذكر مثال القرية المطمئنة كمثل لمن أنعم عليهم تعالى فقابلوا نعمه بالجحود والنيكران: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

ثم يذكر الانحراف عن طاعته بالتعدي والتحليل والتحریم وهو شرك أعظم لا يحق لأحد أن يمارسه من دون الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفَرِّتُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦].

ثم يذكر أن إبراهيم كان أمة ولم يك من المشركين .. معرضاً بهم وبشركهم: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠].

فكما رأينا مساق السورة الكريمة .. تذكر تفاصيل النعم وتعددتها على الخلق ثم تلحف هذا التفصيل إما بطلب الخلق بموجب الإنعام بعبادة الله تعالى وحده أو بتكثفهم على شركهم وتنعاه عليهم؟.

\*\*\*

وهكذا الآيات التي فيها خلق الإنسان والكون عموماً، وكذلك التي فيها الرزق بكل أنواعه المعنوي من العلم والأمن ورفع الدرجة والجمال المبثوث، والرزق المادي بكل تفاصيله من طعام .. للسكن .. للدابة .. للسقيا .. لسائر النعم التي لا تُحصى .. وكذلك الآيات التي فيها المرجع لرب العالمين، بما فيها الوفاة الصغرى والوفاة الكبرى ..

﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٢٢].

﴿ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ بَرِّزُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْفُكُوا ﴾ [فاطر: ٣].

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٩].

﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].  
 ﴿رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوًا مِنْ دُونِهِ إِلَّا هَا أَقْدَقْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤].  
 ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

فربوبية الله تعالى للسموات والأرض توجب عبادته وحده، وغير هذا شطط وبعد عن الحق وعن موجب ما أقرت به الفطر والعقول ..

وانظر إلى أولى الألباب في سورة آل عمران .. تفكروا فأمنوا بربهم ووحده:

﴿إِنِّي فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآئِنِّي لِأُولَىٰ الْأَلْبَابِ﴾ (١١٠) ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١١١) ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (١١٢) ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٣].

فساقهم تفكرهم إلى العلم بالآخرة .. والاستجابة للرسالة .. فالتفكر هو الذي ساقهم إلى ﴿فَقَامْنَا﴾ فهذا هو الذي مُدح في التفكر، ولذا مدحه الله تعالى في كتابه .. وهكذا آيات الكون والخلق والرزق عمومًا ..

## المقصد الثاني التعرف على الخالق سبحانه

كان يمكن أن نضع هذا المقصد هو الأول لترتيب المعرفة ثم العبادة.. ولكن اخترنا تقديم العبادة جرياً على النسق القرآني أن هذه المعرفة مركوزة في الفطرة ويطلب الناس بموجبها، ثم كلما زادت المعرفة زاد الخضوع لله تعالى وزادت هيئته في النفوس وطاعته سبحانه وتعالى.

والقاعدة أن الله تعالى لا يعرف بذاته .. فلا يدرك كنه ذاته أحد، وإنما يعرف بأسمائه وصفاته وبمفعولاته .. فدعا سبحانه للتأمل والتفكير في كونه وفي خلقه لنا ولما حولنا لنزداد به علماً.

وطالما أن المعرفة والإقرار بالربوبية يوجب خضوع القلب وتألهه لله تعالى فكلما زادت المعرفة بالله

زاد تعظيم القلب ووجه وإخلاصه لله تعالى؛ فكلما كان القلب أعلم كان أخشع وكان أخشى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، فهذه الآية جاءت عقب آيات يُعرض فيها الكون: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبَسُوا الْحُلُمَ إِذْ تَخَرَّجْنَاهُمْ كُلًّا مِنْ صُلْحِهِمْ وَمِنْ لَدُنْهُمْ وَمِنْ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ بَعْدَ ذَٰلِكَ إِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨]، وهذا هو المعنى المباشر للآية .. فإذا زادت المعرفة زادت الهيبة والتعظيم واستبشع الخضوع لغير الله، فهذا المقصد غير المقصد الأول لكنهما متلازمان وهو مكمل له.

وانظر إلى فتية الكهف: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوَ مِنْ دُونِهَا إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤]، فجاء هذا التوحيد والإفراد لله بالعبادة والتأله عقب النظر في السماوات والأرض - هم رتبوا هذا على هذا كدليل له - وكلما صفا نظر العبد كلما زادت هذه المعرفة وبالتالي زاد خضوعه واستبشاعه للتوجه لغير الله وربط القلب بأي وسائط ..

والقاعدة عند أهل السنة أن كل كمال في المخلوق فإنما هو من الخالق؛ فالخالق أولى به على أكمل وجه وعلى النحو الذي يليق بجلاله تعالى بلا تمثيل ولا تشبيه بخلقه.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «فإن كل ما يعلم ويقال يدخل في معرفة الله إذ لا موجود إلا وهو خلقه، وكل ما في المخلوقات من الصفات والأسماء والأقدار والأفعال فإنها شواهد ودلائل على ما لله سبحانه من الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ إذ كل كمال في المخلوقات فمن أثر كماله، وكل كمال ثبت لمخلوق فالخالق أحق به، وكل نقص تنزه عنه لمخلوق فالخالق أحق بتنزيهه عنه، وهذا على طريق كل طائفة واصطلاحها فهذا يقول كمال المعلول من كمال علته وهذا يقول كمال المصنوع المخلوق من كمال صانعه وخالقه»<sup>(١)</sup>.

ويقول: «فإنه سبحانه قد خلق من هو حي سميع بصير متكلم عالم قادر متحرك فهو أولى بأن يكون كذلك فإن كل كمال في المخلوق المعلول فهو من كمال الخالق الذي يسمونه علة فاعليّة»<sup>(٢)</sup>.

(١) مجموع الفتاوى، ج ٧، ص ٥٦٩ - ٥٧٠.

(٢) المصدر السابق، ج ٨، ص ٢١.

فإذا نظرت إلى الكون استدلت على الله تعالى؛ على وجوده لمن انحرفت فطرتهم من الملحدين، وعلى أسمائه وصفاته تعالى.

- الاستدلال على وجوده، وهذا خطاب للملحدين: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أم خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿[الطور: ٣٥ - ٣٦].

- الاستدلال على أسمائه وصفاته ومعرفته تعالى .. فإذا وجدت الخلق حولك وبدقة باهرة استلزم الإقرار بالخالق: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْجَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسْحَرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

واستلزم الإقرار بعلمه وقدرته وبعظمته وبرحمته لأنك تلحظ هذا في خلقه، فهو خلق أموراً لنا وفقاً بنا ورحمة لنا .. وتعرفت من الحكمة في المخلوقات على حكمته البالغة ..

واستدلت كذلك على قهره ومملكه .. وعلى إحسانه وعلى جماله .. وعلى أنه خبير وأنه الحق .. فوجوده حق والعبادة له هي الحق ولا يوصف إلا بما يليق من الصفات الحق في شأن ذي الجلال والإكرام.

فكلما وجدت هذا في المخلوقات استدلت به على أن الخالق أولى بهذا - من جانب - وأن ما فعله كان على وجه الإحسان والرحمة والكرم .. لذا مدح التفكير في كتاب الله تعالى .. لأن هذا مقصد أساسي لعرض آيات الكون.

\*\*\*

وانظر إلى هذا الموضع في سورة الحج كيف كان الاستدلال بالخلق على أسماء الله تعالى وصفاته: ﴿ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١١) ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿[الحج: ٦١ - ٦٢].

فعلم من الآيات أن ما نرى مستلزم - مع غيره من الطرق - للمعرفة والإقرار بسمع الله تعالى وبصره وأنه حق، وأن عبادته وحده هي الحق، وأن ألوهية ما سواه باطلة، وأنه تعالى عليّ ومتعالٍ عن كل ما لا يليق بجلاله من الوصف ومن عبادة غيره سبحانه، وأنه تعالى الكبير ..

فهذه لوازم النظر والتفكير في أحد مظاهر خلقه تعالى من ظاهرة إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل بمعنى:

- أن هذا يغشى ذلك عند قدومه.

- أو أنه تعالى يأخذ من طول هذا لذلك في الشتاء والصيف فتارة يطول هذا وأخرى يقصر والآخر كذلك.

\*\*\*

وانظر إلى آيات سورة لقمان: ﴿الْقُرْآنَ أَنْ اللَّهُ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿﴾ [لقمان: ٢٩ - ٣٠]، فتنص الآيات على أن النظر في هذه الظاهرة، وفي تسخير الشمس والقمر يستلزم الإقرار بأن من خلق هذا خبير، وأنه حق، ودعاء وعبادة ما دونه باطلة، وأنه عليٌّ عن ما لا يليق من الوصف ومن الظن وعن الشرك، وأنه الكبير.

\*\*\*

وانظر في آيات سورة الرعد: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿﴾ [الرعد: ٨ - ٩]، فجرى الأمور في الأرحام على قدر وحكمة وتخليق الإنسان هناك بدقة باهرة وصنع عجيب تستلزم أن يكون من خلق عالماً للغيب والشهادة، وتستلزم المعرفة والإقرار بأن الله تعالى هو عالم الغيب كما هو عالم الشهادة، وأنه الكبير والمتعالي عن كل ما لا يليق من الوصف ومن الظن ومن الشرك .. وهذه هي الجرائم الكبرى من الخلق تجاه ملك الملوك .. جلّت قدرته.

وهذا أمر فطري كما قال بعض الأعراب لما سُئِلَ من بعض الناس ما الدليل على وجود الله تعالى؟ فقال: إن البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير؛ فأرض ذات فجاج وأنهار، وساء ذات أقهار، ألا تدل على الله الواحد القهار؟.

وهذا لسلامة فطرته .. وبهذا جاءت الرسل مقررة ومكملة للظن.

\*\*\*

## المقصد الثالث

## الاستدلال على اليوم الآخر

فكثيراً ما تأتي آيات يعرض فيها خلق الله في الكون ردّاً على منكري البعث .. استدلالاً على وجوبه وصدق الرسل في إخبارهم بوقوعه .. وهذا الاستدلال جاء بعدة طرق في كتاب الله تعالى.

الطريقة الأولى: الاستدلال بخلق الإنسان أول مرة على إمكان إعادته ..

فلماذا يشك في الإعادة؟ فليشك إذن في وجوده!

فإذا كان وجوده مسبوqاً بعدم، فعلى البدهة فالوجود المسبوق بوجود سابق أوّلى وأيسر وأهون .. هذا في عرفنا لكن المقدورات لله تعالى نسبتها واحدة ولهذا عندما يورد الله تعالى هذا السؤال من منكري البعث تأتي الإجابة هكذا بكل بدھية ووضوح:

﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِبُ الْعَظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾، فجاءت الإجابة: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٧-٧٩].

﴿ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ﴾، فجاءت الإجابة هكذا: ﴿ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء: ٥١].

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٩].  
﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧].

والنسبة لله تعالى واحدة في شأن بدء الخلق أو إعادته، ولهذا قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ ﴾ قالوا: في عرفكم وفي قياسكم.

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، فهنا نشأتان: « فلما قرره في الإبداء بأنه من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء فإذا لم يعجزه الإبداء وجب أن لا يعجزه الإعادة فكأنه قال ثم ذلك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشئ النشأة الآخرة فللتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ»<sup>(١)</sup>.

ويقول البغوي: «﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾، فانظروا إلى ديارهم وآثارهم كيف بدأ خلقهم ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ أي: ثم الله الذي خلقها ينشئها نشأة ثانية بعد الموت فكما لم يتعذر عليه إحداثها مبدءاً لا يتعذر عليه إنشاؤها معيداً»<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*

(١) تفسير النسفي، ج ٣، ص ٢٥٥.

(٢) تفسير البغوي، ج ١، ص ٢٣٧.

الطريقة الثانية: الاستدلال بإنزال الله الماء من السماء وإحياء الأرض به بالنبات وأن هذه عملية إحياء من الموت وعملية إعادة للحياة مستمرة دائمة ومماثلة لما وعدتم به من البعث .. وهي أمام أعينكم كل لحظة فلم لا تعتبرون؟! ولم إذا تتعجبون من البعث؟! .

ولهذا يكرر عرض إحياء الأرض بالنبات بالماء النازل من السماء في كتاب الله تعالى ثم تعقب هكذا:

﴿ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ ، ﴿ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وانظر إلى الآيات: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقِنَتْهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، ثم قال بعدها: ﴿ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩].

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَلْبَسْنَا بِهِ جِبْتِ وَحَبَّ الْعَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَعْلٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ زَرْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَدَاءَ مَيِّتًا ﴾ ، ثم قال بعدها: ﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [ن: ٩-١١].

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نِيفًا لَا سُقْنَتْهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ ، ثم قال بعدها: ﴿ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الاعراف: ٥٧].

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَرَىٰ الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَّيَسِرِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، ثم قال بعدها: ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمُعْجَى الْمَوْقِيِّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٤٨-٥٠].

﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَدَاءَ مَيِّتًا ﴾ ، ثم قال بعدها: ﴿ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الزخرف: ١١].

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ ، ثم قال بعدها: ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُعْجَى الْمَوْقِيِّ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩].

\*\*\*

الطريقة الثالثة: الاستدلال بخلق ما هو أَوْلَىٰ وأعظم خلقًا من الإنسان - الذي يستعظمون بعثه - وهو خلق السماوات والأرض:

وقد نص القرآن أن خلقها أعظم من خلقنا:

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].

﴿ وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرْتَمَاءُ بَنَاهَا ﴾ [النازعات: ٢٧].

وبالتالي ينص القرآن وينبه على أن الله خلق ما هو أعظم من الإنسان ولم يعي ولم يتعب ولم يكثر بخلقها .. أفلا يقدر على خلق ما هو أقل منها؟! .

ولذلك بعدما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، قال تعالى بعدها: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ لَرَيْبٍ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر: ٥٧-٥٩] ، فواضح أنها سبقت للاستدلال على الساعة.

وبعدما قال تعالى: ﴿عَانتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾، فصل سبحانه خلقه للسموات والأرض فقال: ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ (٢٧) رَفَعَ سَعَتَهَا فَسَوَّيْنَاهَا (٢٨) وَأَغَطَّشْنَا لَيْلَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا مَاءَهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجْنَا مِنْهَا مَاءَهَا وَمَزَعْنَاهَا (٣١) وَالْحَيَالَ أَرْضَهَا (٣٢) مَنَعْنَا لَكُمْ لِئَلَّا تَكْفُرُوا (٣٣)، ثم قال تعالى بعدها: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٥].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يُقَدِّرْ عَلَيْنَ أَنْ يُخَيِّئَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الاحقاف: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَيْنَ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، ثم أخبر تعالى بشناعة إنكار الظالمين للقائه بعد هذا الدليل الواضح، فقال: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٩].

وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يُقَدِّرُ عَلَيْنَ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

\*\*\*

الطريقة الرابعة: الاستدلال بالحكمة.

وذلك أن القول بعدم البعث هو قول بأن الله تعالى خلق الحياة عبثاً وسدى وهباءً.

وهذا لا يليق برب العالمين .. هذه واحدة.

والثانية: أن الحكمة ملحوظة في كل جزء من الكون وفي كل ثناياه - فالعين في محلها بما يحفظها من أهذاب ومحاجر وحاجبين .. والرجل لوظيفتها .. واليد والأصابع .. والخلايا وأنواعها .. والتوازن في الخلق في كل عالم من الحيوان والطير والديدان والحشرات والوحوش .. وبين العوالم وبعضها وبين السماء والأرض ..

وفي هذا الجانب كتبت أسفار تراجع خاصة في علم الأحياء والكيمياء وغيرها ..

فإن كانت الحكمة هكذا ماثورة ومنطوية في كل ذرة وفي كل منعطف في هذه الحياة وفي الكون العريض وآفاقه .. فكيف يكون الوضع الكلي للحياة عبثاً بلا حكمة؟!.

﴿سَرُّيَهُمْ ءِآيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

وكيف يكون الغرض العام من الحياة والكون والخلق كله عبثاً بلا هدف؟.

وفي عالم البشر كم من ظالم مات ظالماً لم يقتصص منه، وكم من مظلوم مات بدمعه كمداً لم ينتصف له فإن كانا يستويان فيلزم من هذا أن الظالم كالمظلوم، ومن كف عن الظلم سيستوي مع من أغرق فيه، ومن عف عن المحارم كمن انتهكها فيلزم من هذا أن الحياة عبثٌ وسدى وبلا حكمة .. بل يلزم منها الإلحاد في وجود الله تعالى وإنكاره ..

هذا ما عده القرآن سبة لله تعالى، ونزهه تعالى نفسه وقدسها عن هذا العبث وتعالى عن هذا الظن.

وانظر إلى هذه الآيات:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾، ثم نزه تعالى نفسه عن هذا فقال: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦]، فتعالى ربنا عن هذا العبث وتنزه عنه.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص: ٢٧].

فهو ظن سيء برب العالمين.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾، ثم أعقبت بتقرير الساعة: ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [الحجر: ٨٥].

ومعنى ﴿ يَا الْحَقِّ ﴾:

«إلا ملتبسًا بالحق مراعيًا فيه مقتضى الحكمة البالغة»<sup>(١)</sup>.

«إلا خلقًا ملتبسًا بالحق لا يلائم استمرار الفساد ودوام الشرور فلذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء وإزاحة فسادهم من الأرض»<sup>(٢)</sup>.

«إلا بسبب الحق الذي اقتضاه الدليل من الإيمان والطاعة أو البعث»<sup>(٣)</sup>.

«إلا خلقًا ملتبسًا بالحق وهو ما تقتضيه الحكمة والمعدلة وفيه دلالة على وجود الصانع الحكيم والبعث للمجازاة على ما قرناه مرارًا»<sup>(٤)</sup>.

﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴾ [الاحقاف: ٣]، والسورة كلها في إنكار المشركين للبعث، والرد عليهم وتقريره.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ ﴾ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهٗوَآءًا لَّخَدْنَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿[الأنبياء: ١٦-١٧].

﴿ أُولَٰئِكَ يَنْظُرُونَ فِي مَلَكَوَاتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعَدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ يَنْفَكِرُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿[الروم: ٦-٨].

﴿ وَيَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ ﴾ [النجم: ٣١]، فهذا نص على أن خلقه لها لهذا القصد، وهكذا..

\*\*\*

- (١) تفسير البيضاوي، ج ١، ص ١٨٥.  
 (٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٨٠.  
 (٣) المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٣.  
 (٤) المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٦.

الطريقة الخامسة: تعداد ما خلقه الله تعالى في هذه الحياة على أنه نعم، وأن هذه النعم تستوجب الشكر، ثم هناك من يشكر ومن لا يشكر فكيف يستويان.. الشاكر والجاحد؟  
فلا بد أن يكون للمُنعم جزاؤه لكل منهما.

وطالما هناك من أنعم وطالب بشكر هذه النعم فلا بد من أنه يملك الجزاء على الوفاء وعلى عدمه. فعلى من يلحظ وجه النعمة أن يلحظ جانب الواجب المترتب عليها، وهذا الواجب لا تستقيم المطالبة به إلا بيوم يحاسب كل على قيامه بالشكر أو عدم ذلك..

يقول البيضاوي: ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ والتمسوا من نعم الله، ﴿وَالِيهِ النُّشُورُ﴾ المرجع فيسألكم من شكر ما أنعم عليكم<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾، يقول البيضاوي: «الذي أهلكم، والخطاب مخصوص بكل من ألهاه دنياه عن دينه و﴿النَّعِيمِ﴾ بما يشغله للقرينة والنصوص الكثيرة كقوله: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾، ﴿كُلُوا مِن الطَّيِّبَاتِ﴾، وقيل: يعمان<sup>(٢)</sup> إذ كلُّ يُسأل عن شكره، وقيل الآية مخصوصة بالكفار<sup>(٣)</sup>.

\*\*\*

الطريقة السادسة: الاستدلال بعموم القدرة المستدل عليه من النظر في خلقه تعالى وقدرته الباهرة في خلقه..  
فيذكر طلاقة قدرته التي لا تتوقف على شيء إلا مجرد إرادته تعالى ولهذا يشير إلى هذا مع الطرق الأخرى.

وهذا واضح في آخر سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾، فرد عليه:

- ١- بدليل بداية الخلق: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.
- ٢- ثم أعقبه بإيراد خلقه تعالى ما هو أولى وأعظم: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِيرُ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾.
- ٣- ثم نص على عموم قدرته: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٧٧-٨٢].  
وكذلك في سورة النحل:

فقد حكى الله تعالى عن المشركين أنهم أقسموا أن لا بعث فقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾. وكانت الإجابة:

(١) تفسير البيضاوي، ج ١، ص ٣٦٤.

(٢) أي المؤمن والكافر.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٥٢٤.

أولاً: بإثبات الحقيقة ولو أنكروها وأنها من موعود الله تعالى الذي لا محالة من تحققه ولا التفات إلى أقوالهم التي تلقى على عواهنها بلا دليل، بل ظنٌّ ونحْرَصٌ ومكابرةٌ، فقال تعالى: ﴿بَلَى وَعَدَا عَلَيَّ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثانياً: الاستدلال على البعث بدليل الحكمة التي ذكر تعالى بعض أوجهها وبعض أغراضها فقال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾، فنص تعالى على بيان الحق في اختلافهم سواء في شأن البعث أو التوحيد والشرك أو النبوة والرسالة أو افتراءهم في التشريع بل في جميع ما اختلفوا فيه.

ثالثاً: استدلال تعالى بعموم القدرة فقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٣٩ - ٤٠].

\*\*\*

الطريقة السابعة: الاستدلال بعموم العلم المستدل عليه أيضا بهذا الخلق.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ① يعلم ما يبلغ في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴿، ثم أورد تعالى إنكارهم للبعث ورد عليهم بعموم علمه تعالى، ودليله ما يشاهدونه من الخلق واستقامته، فلو كان في علمه تعالى نقص ما - سبحانه - لما استقامت السماوات والأرض فلا وجه لما يستبعدونه من العلم باختلاط التراب المتحلل من الأجساد بتراب الأرض: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْزَبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبا: ١ - ٣].

\*\*\*

ولننظر الآن نظرة عامة إلى إيراد آيات الكون بهذه الطرق مجتمعة أو ببعضها أو بأحدها حسب السياق ..  
فيما يخص اليوم الآخر والاستدلال عليها به

ولكن أيضًا نشير هنا قبلها إلى قاعدتين هامتين:

القاعدة الأولى:

وهي أن هذا المقصد من إيراد آيات الكون للدلالة على اليوم الآخر بطرقه السالف ذكرها، تجتمع كثيرًا بالمقصد الأول وهو الاستدلال بربوبيته تعالى كدليل على ألوهيته وعلى طلب إفراده بالعبادة والطاعة والحب.

فهما صنوان .. الدعوة لإفراده تعالى بالعبادة مع الاستدلال على اليوم الآخر ..  
وأحيانًا ينص على المقصدين معًا وأحيانًا متواليين وأحيانًا أحدهما قبل الآيات والآخر بعدها وذلك لاشتراكهما في الدلالة فهما المقصدان الغالبان في هذه الآيات الكريمة.

القاعدة الثانية:

وهي ملاحظة مهمة قبل أن نورد الآيات وهي أن القرآن لا يخاطب العقل فقط بالإقناع بل يخاطبه بالإقناع ويخاطب أيضًا القلب في نفس الوقت لاستحاشة مشاعره بالتهديد والتخويف لتكون هناك جدية في أخذ الموضوع وتناوله ..

فأمر البعث أمر جاد وعظيم فلا يناقش على سبيل الهزء أو اللعب وإنما على محمل الجد ومعرفة واستشعار الخطر الذي يحيق بالإنسان بسببه عمومًا وإنكاره خصوصًا .. وكم ممن يسأل لا على وجه الجد بل على سبيل الاستهزاء والسخرية، وقلبه غافل يحتاج إلى إيقاظ مع خطاب العقل بما يقنعه بأدلة لا تقبل المهاراة أو الجدال لأنها بدهية وفطرية ..

ولو سبقت الأدلة - مهما كانت مقنعة - للأعب الهازئ لما نفعته ولا أثرت فيه إلا بقيام الحججة عليه فقط والإعذار في شأنه ..

فالقرآن لا يقنع فقط بل يلحف الإقناع بالتهديد الذي قد لا يدرك البعض سبب وجوده أحيانًا قبل الدليل وأحيانًا بعد الدليل إلا إذا علم السبب السابق ذكره .. وأرجو تذكّر هذه القاعدة الملحوظة دائمًا.

\* \* \*

المثال الأول: لناخذ مثالا واضحا جدا في سورة الدخان .. يقول تعالى:

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾، هذا إنكار للبعث لكنهم لم يكتفوا بالإنكار بل أتبعوه بأنهم مستهزون بالأمر ويأخذون الموضوع مأخذ اللعب فقالوا: ﴿ فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الدخان: ٣٤-٣٦]، ولماذا يأتون اليوم<sup>(١)</sup> هل الأمر عبث، وهل هناك بعث قبل اليوم الذي حدده رب العالمين؟ وكيف يبعثون قبل استيفاء الخلق لمدة التكليف؟  
فلما كان الأمر بهذا الاستخفاف .. جاء الرد على خطوات:

١- التهديد اللائق باستهزائهم: ﴿ أَهْمَ حَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٧]، وهو تعريض بهم بأنهم يجرمون كما فعل السابقون فليحذروا أن يحل بهم ما حل بهم.

٢- ثم أورد الدليل على البعث ببساطة وبداهة وبطريقة فطرية وضرورية: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَيْبِ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]، ومعنى بالحق: أي بالحق الثابت أو بالحكمة البالغة أو بجزء كل نفس بما تسعى كما أسلفنا عبارات البيضاوي في تفسيره.

٣- ثم استأنف التخويف الأخرى الشديد فقال تعالى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنْ سَجَرْتِ الرَّقُونَ ﴿٤٣﴾ لَطَعَامَ الْأَيْمِرِ ﴿٤٤﴾ كَالْمَهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَعَلَى الْحَمِيرِ ﴿٤٦﴾ حُدُوهُ فَأَعْنُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْحَمِيرِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُوهَا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيرِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِذَا نَكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمِ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمَتَّرُونَ ﴾ [الدخان: ٤٠ - ٥٠]، فوقع الاستدلال بين تهديد بعذاب دنيوى وتهديد بعذاب أخروى وذلك لخطاب القلب والعقل معا.

\*\*\*

المثال الثاني: آيات الجاثية:

فقد بدأت الآيات بذكر إنكارهم للبعث مع استخفافهم بالأمر: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا نُنزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَوِي مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّنُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الجاثية: ٢٤-٢٥].

وجاء الرد عليهم من وجهين:

أولاً: ما تضمنه كلامهم على ما يدل على بطلان هذا الكلام فإنهم قالوا: ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾، وهذا اتهام بالعبث، وهذا لا يليق بالله تعالى، وكل فطرة تعرف هذا، وهذا الخلق من حولنا يدل على جدية الحياة لا عبثيتها.

(١) هذا وجه في التفسير والوجه الآخر أن يأتوا ليخبرونا بصدق نبوتك وإخبارك بالبعث، وكلاهما هزء ولعب لأن الأدلة متوافرة وبكثرة حاشدة، وكما يقول ابن كثير في هذا الموطن وما شابهه من اقتراحات المشركين: أنهم لم يسألوا استرشادا بل عنادا واستهزاء.

ثانياً: رد عليهم بدليل النشأة الأولى والإحياء الأول من العدم وجاء الأمر لا في صيغة الاحتجاج بل في صيغة الخبر لتيقن وقوعه وصدق الإخبار به فهو حقيقة فقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجمانية: ٢٦].

وكما علمنا القاعدة السابق ذكرها فقد ألحف الاستدلال بالوعظ والتخويف لإيقاظ قلوبهم، فالحجة المستقلة للعقل وحده قد لا تكفي البعض لغفلة قلبه فقال تعالى في تخويف طويل غالب على الترغيب: ﴿وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُوسِّدُ بَحْسَرًا الْمُبْتَلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِعَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْرَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَاتِي تَتْلُو عَلَيْهِمْ قُلُوبَهُمْ فَاسْتَكْبَرُوا وَكُنتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قِيلَ لِنَارٍ وَعَدْنَاكَ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَالسَّاعَةَ لَأَرْبَبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقْبِئِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَأْهُمُ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ بِأَنكُم كُنتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ تُهْرَؤُونَ وَعَرَفْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَأَلْوَيْتُمْ لَا تَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَفُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمانية: ٢٧ - ٣٧].

ففي «الدخان» قدّم التهديد الدنيوي ثم الاستدلال ثم التهديد الأخروي، وهنا قدّم الاستدلال ثم أعقبه بالتخويف الأخروي.

\* \* \*

المثال الثالث: سورة ق:

فالسورة تبدأ بحكاية إنكارهم البعث وأورد شبهة لهم وهي اختلاط أجزاء الميت بالتراب وعدم تمييزها وعبروا عن هذا بلفظ: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾، ورد عليهم رداً قاطعاً: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٣-٤]، وهو رد بعموم علمه تعالى وعدم النقص فيه بوجه من الوجوه.

ثم أورد طائفة من آياته في الخلق وهي الاستدلال على البعث ونص على ذلك: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَبَّيْنَاهَا وَمَا هِيَ مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦-٨]، تبصرة: لمن لا يعلم منهم، وذكرى: لمن يعلم. ثم نص على الاستدلال فقال: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]، وهذا فيما يخص إنزال الماء من السماء.

والآيات فيها استدلال:

١- بخلق ما هو أعظم: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾.

٢- وبالْحكمة المنتشرة في خلقه.

٣- وباستحقاق الشكر لأنها نعم.

٤- وبإحياء الأرض بعد موتها.

٥- ثم استدل بعدها ببدء الخلق على إعادته فقال تعالى:

﴿ أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق: ١٥]، فهذه كلها أدلة.

وطبقاً للقاعدة الأولى المستقرأة من إلخاف الأدلة بالترهيب فقد أعقب هذه الأدلة بالوعيد الدنيوي بالتعريض بتكذيب من قبلهم مثل تكذيبهم فأخذهم العذاب: ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَقُرُونٌ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تُبَّعٌ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴾ [ق: ١٢ - ١٤]، ثم مشاهد الآخرة والتهديد بها وهي من أعظم مشاهد الوعيد فيما يخص المرء نفسه بالمراقبة ثم الموت ثم مشاهد القيامة الكبرى ثم في النار ثم الجنة ولذا كان يخطب بها النبي ﷺ الجمعة حتى حفظها بعض الصحابة أثناء خطبه بها، وفي خاتمة السورة ذُكر للخروج الأعظم من القبور فالسورة كلها حزمة واحدة في أمر البعث، وكأنها جملة واحدة ..

ولا يظن أحد أن مقطع ذكر آيات الكون كأنه خارج موضوع البعث .. كأنه قطع السياق إلى موضوع آخر! ثم عاد إليه لما ذكر الموت .. كلا .. بل هذا استدلال، وهذا وعيد، لجدية المآخذ ولإيقاظ المشاعر وللخطاب القرآني المتميز الذي يجمع بين "خطاب عقلي مقنع وعميق التأثير على الوجدان في آن واحد" (١).

\* \* \*

#### المثال الرابع: سورة الغاشية:

فسياق السورة كله عن اليوم الآخر مواجهها للمشركين مبكتاً لهم على شركهم فجاءت السورة: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾، ثم ذكر مصير الكفار: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُشَقَّى مِنَّ عَيْنٍ أَيْنَعُ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن صَرِيحٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ [الغاشية: ١-٧].

ثم ذكر مصير المؤمنين، وفصل تعالى في شأن نعيم الجنة: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْرَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَمَنَارِقٌ مَّصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزُرَّاقٍ مَّبْتُوثَةٌ ﴿١٦﴾ [الغاشية: ٨-١٦]. ثم ذكر مقطعاً من آياته تعالى في الكون والخلق: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

ثم أعقب بالتهديد وذكر المرجع: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٦].

فهذا المقطع الذي يذكر خلق السموات والأرض والإبل والجبال سبق هنا لمقصدتين:

أولاً: للاستدلال على اليوم الآخر من حيث:

١- خلق ما هو أولى وأعظم خلقاً.

٢- ومن حيث أنها نعم يُطلب شكرها ويعاقب من جحد هذا وأخل به.

٣- الحكمة الملحوظة في كل خلق لما هبى له.

(١) راجع كتاب الطريق إلى الجنة لفضيلة الشيخ عبد المجيد الشاذلي حفظه الله.

ثانياً: للاستدلال على وجوب إفراده بالعبادة لأن هذه أدلة ربوبيته لطلب إفراده بالألوهية والتعبد، وهذا هو شكر النعم، فلا يتم شكرها إلا بعبادة الله تعالى وحده، فهذا أصل الشكر ومأخذه، وتحقيق الشكر يكون بالرجوع إلى الله تعالى ومرضاته في كل حال حسب الاستطاعة وبالعمل لحق الرب لا لحظ النفس.

وهذا إحسان يوجب الحب لمن أحسن به وأجاد.

فالمقصودان متلازمان (اليوم الآخر، وإفراذ الله بالعبادة).

فهذه الجملة من عرض آيات الكون والخلق هنا لم تقطع السياق بل هي من صلب السياق وأساس فيه.

\* \* \*

المثال الخامس: آيات سورة المؤمنون:

ولننظر في السياق جيداً: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَنُبْعُوثُنَّ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المؤمنون: ٨١-٨٣].

وهنا لم يرد عليهم ردًا مباشرًا وقد يرى البعض أنه ليس هناك رد مباشر عليهم، بل هناك رد وهو الآيات التالية: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ يَبْدؤُا مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤-٩٢].

ولما كان هذا إنكارًا محضًا أتى بالاستدلال أولاً، أما الوعيد فجاء بعد ذلك.

وقد استدلل بهذا السياق على الأمرين معاً هنا وحتى آخر السورة:

أولاً: اليوم الآخر والبعث، من باب:

١- خلق ما هو أعظم. ٢- والحكمة.

٣- وعموم قدرته تعالى وملكه.

ثانياً: وجوب إفراده بالعبادة وحده دون شريك.

ولهذا: جاءت الآيات ردًا على إنكار البعث فهذا هو المقصد الأول.

ثم أعقبه ببيان وحدانيته تعالى ببيان:

أ- ربوبيته المطلقة ووصفه المنزه عن الولد وعن الشريك وهذا أحد شقي التوحيد فنزه نفسه عن الوصف الذي لا يليق، مع وجوب وصفه بما يليق فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾.

ب- أعقبه ببيان الشق الثاني من التوحيد وهو وجوب إفراده بالألوهية ووجوب تعلق القلب به وحده وعبادته وحده والخضوع له وحده فقال: ﴿فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

(١) ولهذا استدلل شيخنا الإسلام ابن تيمية وابن عبد الوهاب بهذه الآيات على أنها احتجاج بإقرارهم بالربوبية على وجوب إفراده بالألوهية وإنكار شركهم معه غيره في باب العبادة والعمل.



لكن لأنها لها نفس وجه الاستدلال على الآخرة أورد بعدها إنكارهم للآخرة فقال: ﴿أَوَذَاكُنَّا تُرَابًا وَاَبَاؤُنَا أَيْتَانًا لَمُخْرَجُونَ﴾ (٦٧) لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿﴾ ، ولم يرد عليهم هنا باستدلال آخر، ذلك لأن الرد والاستدلال قد سبق في هذه الآيات الكريبات قبلها، ولهذا أعقب هذا الإنكار بالوعيد فقط فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٧-٦٩]، وهذا تعريض بهم بأنهم بهذا الإنكار مجرمون، ولينظروا كيف فعل الله تعالى بالمجرمين قبلهم .. والمعتاد في سياق القرآن في أمر إنكار البعث اقتران الوعيد بالاستدلال، قد يتقدم أحدهما على الآخر لحكمة في السياق لكن يتلازمان في الأعم الغالب.

وهنا لم يفرد الوعيد بل الاستدلال موجود فيما سبق مباشرة.

بل لو تأملت لوجدت الآيات بعدها تذكر مشاهد من الآخرة ودليلها من آيات الكون دون إيراد إنكارهم: ﴿وَيَوْمَ نَخْتُمُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ قَوْمًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ وَقَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تَحْطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿﴾، ثم قال بعدها مستدلاً على هذا اليوم العظيم: ﴿الَّذِينَ جَاءُوا بِنُوحٍ أَنِ ابْنُكِ وَإِنَّا لَمُبَشِّرُونَ﴾ (٨٦-٨٣) [النمل: ٨٣-٨٦].

وهذا من باب:

٢- والقدرة.

١- النعم.

٤- والحكمة.

٣- وخلق ما هو أعظم.

ونص تعالى أن في هذه الآيات لقوم يؤمنون، وهذه بعضها.

\*\*\*

المثال السابع: آيات سورة الأعراف:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، هذا كله في التوحيد، توحيد الألوهية ودليله من الربوبية، ثم ذكر دليل البعث بإحياء الأرض بالنبات فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا نَفَعًا لَأَسْقِنَهُ لِلسَّيْرِ فَانزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، ثم قال سبحانه: ﴿وَأَلْبَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۗ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۗ كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (٥٨) لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۗ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿ [الأعراف: ٥٧-٥٩].

فهكذا تجرد التوحيد والبعث متلازمين في الاستدلال عليهما بآيات الكون والخلق.

\*\*\*

المثال الثامن: آيات سورة يونس:

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]، والمقصود منها الأمران معاً.

فأولاً: كان هناك تقرير إفراده تعالى بالعبادة فقال: ﴿ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣٢]، يعني: عن إفراده بالعبادة.

ثم أورد ذكر الآخر فقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَسْبُدُّ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ [يونس: ٣٤].

لأنها متضمنة الاستدلال عليها من باب:

١- النعم التي يُطالب بشكرها.

٢- خلق ما هو أولى وأعظم من السماء والأرض.

٣- إخراج الحي من الميت كل لحظة من إحياء الأرض ومن ولادة الانسان.

٤- الحكمة بتدبير الأمر.

\*\*\*

المثال التاسع: آيات سورة الحج:

بدأت سورة الحج بوعيد عظيم جداً: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُؤًا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُدْهِلُ كُلُّ مَرْصِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾، ثم ذكر تعالى المجادل في آيات الله تعالى بغير علم ولا دليل ويتبع الشياطين في منهجه: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ② كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الحج: ١- ٤]، ثم أعقب هذا باستدلال مباشر على البعث.

فوقع هذا المجادل المتبع للشيطان بين أمرين:

١- وعيد عظيم .. خطاباً لقلبه.

٢- ثم أتبع بدليل باهر مقنع يحترم عقله ويخاطبه .. فماذا يبقى له؟.

والاستدلال المباشر جاء بهذه الطريقة الواضح فيها الرحمة والبيان للخلق وتوجيه تفكيرهم ونظرهم إلى طريقة الاستدلال: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّ أَحْسَنَ مِمَّا تُحْسِنُونَ ③ فَطَفَلًا نَّحْمِلُكُمْ فَطِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُؤْتِي وَيُمْسِكُ مِمَّا يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ④ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑤ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٥- ٧].

وكان الاستدلال من وجهين:

١- خلق هذا الإنسان لأول مرة .. فكيف يعجز من خلقه عن إعادته؟! ..

٢- دليل إحياء الأرض.

وكذلك يلاحظ أنه مع الاستدلال على البعث صاحبه أمران: معرفة الله والاستدلال على أسائه وصفاته (أنه الحق وأنه المحيي وأنه القدير)، والاستدلال على حقه وحده في العبادة لأنه الحق في ذاته وفيما يجب له من الوصف ومن الحق الخالص الذي لو صرف لغيره لكان باطلاً.

\*\*\*

المثال العاشر: آيات سورة الرعد:

﴿ الْمَرْءُ تِلْكَ أَيْدِيُ الْكَيْتِبِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عِمْدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ فَيُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْسًا وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَابِ وَرَزَعٌ وَخَيْلٌ صِنُونٌ وَعَيْرٌ صِنُونٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُقْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَيْدَا كُنَّا تَرْبَا أَيْدَا لَفِي خَلْقِ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَى فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ [الرعد: ١-٥].

فلما ذكر تعالى خلقه للسماوات والأرض الأعظم والأشد خلقاً من الإنسان .. وكذلك تسخير الشمس والقمر ثم ذكر تعالى أن هذا بحكمة حيث أن كل هذا يجري إلى أجل مسمى ..

ثم ذكر تعالى إحيائه للأرض بعد موتها وهي عملية إحياء مشابهة لإحياء الإنسان بعد موته، وفصل تعالى في بيان نعمه مع قدرته.

فوضح من هذا أنه تعالى عرض:

أولاً: خلق ما هو أشد خلقاً من خلق الإنسان.

ثانياً: الحكمة فيما خلقه تعالى.

ثالثاً: إحياء الأرض بعد موتها.

رابعاً: عدد نعمه تعالى ليتوجب على الخلق الشكر ويتوجه عليهم الطلب بهذا ..

وبعد هذا البيان يكون العجب ممن ينكر البعث فيكون كأنه يهذي أو مجرد مكابر جاحد، وليس العجب ممن يقول بالبعث، فيذكر تعالى أن لو كان ثمة تعجب فالحقيق به والجدير شأنه به هو من استبعد الإحياء بعد المات، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَيْدَا كُنَّا تَرْبَا أَيْدَا لَفِي خَلْقِ جَدِيدٍ﴾، ثم هددهم تعالى لايقاظ قلوبهم كما خاطب عقولهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَى فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

المثال الحادي عشر: آيات سورة النبأ:

فقد بدأت السورة بهذا السؤال: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ثم أعقبته بما يريد هؤلاء: ﴿عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ﴾، ثم بينت انهم مختلفون فيه رغم عظمتهم: ﴿الَّذِي هُرِّفِيهِ مَخْتَلِفُونَ﴾.

والنبأ هنا هو: البعث، وهو القول الراجح، والقول الثاني: أنه صحة الرسالة. لكن الراجح هو الأول (البعث) لأن السياق كله في السورة حوله. وكانت الإجابة على تساؤلهم في شأن البعث على ثلاث خطوات: الأولى: تهديد عام .. وهو خطاب لقلوبهم لبيان أهمية ما يتكلمون في شأنه:

﴿كَلَّا سَيَعْمُونَ﴾ (٤) ﴿تُرْكَلَا سَيَعْمُونَ﴾.

الثانية: استدلال على صحة البعث، وهو خطاب موجه لقلوبهم بقوله تعالى:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ (٦) ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (٧) ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (٨) ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ (٩) ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا﴾ (١٠) ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (١١) ﴿وَبَيَّنَّا فَوْقَكُمُ سَبْعًا سُدُودًا﴾ (١٢) ﴿وَجَعَلْنَا لِكُلِّ جَبَلٍ سَرَاةً وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَمَّارًا﴾ (١٤) ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ (١٥) ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ١-١٦].

وهذا استدلال:

- ١- بخلق ما هو أعظم وأشد خلقا، وهو خلق السموات والأرض والجبال.
- ٢- بأن هذه نعم تستوجب الشكر، ومن أنعم لا بد أن يجازي كلاً بعمله.
- ٣- بالحكمة من وراء كل هذا الخلق.

٤- بعملية الإحياء: ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ وهي عملية مماثلة تماما لإحياء آدميين بعد موتهم.

الخطوة الثالثة: خطاب ثاني لقلوبهم بمشاهد الآخرة قال تعالى:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتَنَا﴾ (٧) ﴿يَوْمَ يُفْعَخُ فِي الْأَصْوَارِ فَنَأْتِيهِمْ أَفْوَاجًا﴾ (٨) ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ (٩) ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (١٠) ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ (١١) ﴿لِلظَّالِمِينَ مَتَابًا﴾ (١٢) ﴿لِيَبْتَلِيَهُمْ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ (١٣) ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ (١٤) ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ (١٥) ﴿حَرًّا وَفَافًا﴾ (١٦) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ (١٧) ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ (١٨) ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ (١٩) ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (٢٠) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ مَفَارًا﴾ (٢١) ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ (٢٢) ﴿وَكَوَاعِبَ أَرْبَابًا﴾ (٢٣) ﴿وَكَنَاسًا دِهَاقًا﴾ (٢٤) ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾ (٢٥) ﴿حَرًّا مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ (٢٦) ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (٢٧) ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (٢٨) ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اخْتِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا﴾ (٢٩) ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ١٧-٤٠].

إشارات هامة

الإشارة الأولى : الآيات التي تستدل على الآخرة ثلاثة أضرب:

حما يستفاد في هذا الشأن أن هناك ثلاثة أضرب من الآيات التي تستدل على الآخرة:

١- أغلب الآيات في الاستدلال على البعث كما مر بيانه وطرقه.

٢- لكن هناك آيات أخرى تقررهم كأنهم مقرون به .. لأنهم ملزمون بالإقرار به .. لأن وجودهم دليل وشاهد على البعث ولا مناص من الإقرار بوجودهم! فألزمهم بهذا. وهذا واضح جداً من سياق

سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩]، وهم قد رأوا البداية ولكن لم يروا الإعادة لكن هذه شاهدة على تلك فهم محجوجون بها فلوضوح الأدلة وقوتها وإلزامهم بها فكأنهم رأوا الإعادة، وإلى هذا أشار قتادة<sup>(١)</sup>.

٣- وهناك ضرب ثالث من الآيات تجعل البعث من آيات الله تعالى:

ففي سورة الروم: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السَّيْنِ كُمْ وَالْوَلَدِ كُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ مَنْأَمُكُمْ بِالنَّارِ وَالنَّهَارِ وَأَنْبَغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الذَّرَقَ حَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۗ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبُونَ﴾ [الروم: ٢٠-٢٦].

كان آخرها: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتٌ عَلَيْهِ ۗ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، فجعل الإعادة من آياته التي يستدل بها على عظمته وقدرته فكما يستدل

بأنه الذي خلق يستدل كذلك بالإعادة وهذا على أحد الوجهين في ﴿ثُمَّ﴾.

وقد سبقت عقب سرد آياته تعالى المفصلة في الكون والخلق.

وكذلك آية النمل: ﴿أَمْ نَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ نُعِيدُهُ ۚ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ لَهُ مَعَ اللَّهِ قُلُوبٌ بَرَهَنَتْكُمْ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]، فجعل الإعادة والبعث دليلاً على عظمته وربوبيته مع الاستدلال بالخلق والاستدلال بالرزق، وهذا على أحد الوجهين في الإعادة.

وقد سبقت في باب الاستدلال عليهم بما يقرون به لتقريرهم بحق الله الخالص في العبادة، ولم

يلتفت إلى إنكارهم للإعادة.

(١) وفي الآية أوجه أخر: ١- أن قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ معطوف على محل ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وليس على ﴿يُبْدِئُ﴾ الخلق فيكون إخباراً مستأنفاً من الله تعالى. ٢- أن الإعادة المرئية هي في النبات كل عام من الإحياء المتجدد. ٣- فهذا الذي قلناه أنهم ملزمون بهذا وإن لم يروه فكأنهم رأوه وهو الذي أشار إليه قتادة.

وكذلك آية يونس: ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُؤَفَّكُونَ ﴾ [يونس: ٣٤]، فقد سبقت في باب الاستدلال على بطلان تألههم وتعبدهم لغير الله وتقرير حق الله الخالص في العبادة والطاعة ونفي الشركاء من دونه .. فواضح أنه استدل بها على وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة .. فهنا إشارة إلى أنه من آيات الله تفرد الله تعالى بها.

فمرة يستدل على البعث، وهذا هو الغالب، وأخرى يستدل بتفرد به تعالى على إفراده بالعبادة، وهذا لشدة ظهور حجته ودلائله .. وأن الخلق ملزمون بالإقرار به كما يشهدون بوجودهم.

ولهذا قال مؤمن ياسين: ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٢٢]، ولم يستدل - رحمه الله - على البعث، بل استدل به على عبادته لله وحده .. ولهذا قال في الروم: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٤٠]، ولم يستدل أيضًا هنا على البعث بل قرره أنه حقيقة تفرد الله تعالى بها كما تفرد بقدرته على الخلق الأول وبالتالي تحداهم أن آهتهم المزعومة عريّة عن هذا فهي باطلة .. ولم يلتفت السياق إلى إنكارهم للبعث لوضوح دليله؛ فإنكارهم مكابرة.

فتبارك الله وتقدس اسمه وجلت حكمته ..

\* \* \*

الإشارة الثانية: قيمة المؤمن في هذا الكون ونظامه:

كذلك مما يستفاد بيان قيمة المؤمن في خلق السماوات والأرض ..

فإن الله تعالى ذكر أنه خلق السماوات والأرض بالحق لمجازاة كل نفس بما عملت .. المؤمن والكافر .. كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا يُتَجَرَّى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَى ﴾ [طه: ١٥]، ﴿ فَكَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٧) ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ﴿ لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٩].

لكنه تعالى ذكر في بعض المواطن ما يبين قيمة هذه الحياة والبعث للمؤمن وكان المقصود الأصلي هو مجازاته وأما الكافر فبالعرض، وهذا في موطنين:

في سورة يونس يقول تعالى معللاً إعادة الخلق بأنه لمجازاة المؤمنين: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ﴾ ، فكان التعليل واقعاً على مجازاة المؤمنين ثم استأنف فذكر تعالى ما أعده للكافرين: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٤٤].

يقول البيضاوي: ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بعد بدئه وإهلاكه ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ﴾ أي: بعدله، أو بعدالتهم وقيامهم على العدل في أمورهم، أو بإيمانهم لأنه العدل القويم كما أن الشرك ظلم عظيم، وهو الأوجه، لمقابلة قوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا

يَكْفُرُونَ ﴿١﴾، فإن معناه ليجزي الذين كفروا بشراب من حميم وعذاب أليم بسبب كفرهم لكنه غير النظم للمبالغة في استحقاقهم للعقاب، والتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة، والعقاب واقع بالعرض، وأنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه ولذلك لم يعينه وأما عقاب الكفرة فكأنه داء ساقه إليهم سوء اعتقادهم وشؤم أفعالهم والآية كالتعليل لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾، فإنه لما كان المقصود من الإبداء والإعادة مجازاة الله المكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إليه لا محالة ويؤيده قراءة من قرأ: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ﴾ بالفتح أي: لأنه ويجوز أن يكون منصوبًا أو مرفوعًا بما نصب ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ أو بما نصب ﴿حَقًّا﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْرِ الْيُسُفُ ﴿سبأ: ٣-٥﴾.

\*\*\*

الإشارة الثالثة: ومن أجل هذه القيمة للمؤمن عُدَّت مصيبة الموت في بعض سياقات الإنعام!

فقد عُدَّ الموت مصيبة: ﴿إِن أَنْتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ [المائدة: ١٠٥]..

لكن عُدَّ في بعض المواضع في ضمن النعم للمؤمن: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

يقول البيضاوي في تفسيرها: «فإن قيل: كيف تعد الإمامة من النعم المقتضية للشكر؟ قلت: لما كانت وصلة إلى الحياة الثانية التي هي الحياة الحقيقية كما قال الله تعالى: ﴿وَأِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ﴾، كانت من النعم العظيمة مع أن المحدود عليهم نعمة هو المعنى المنتزع من القصة بأسرها»<sup>(١)</sup>.

وفي سورة عبس يقول تعالى: ﴿قُلْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ أَسْبَغَ لَبَنَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس: ١٧-٢٢].

يقول البيضاوي: «﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾»، وعد الإمامة والإقبار في النعم لأن الإمامة وصلة في الجملة إلى الحياة الأبدية والذات الخالصة.

\*\*\*

## المقصد الرابع

## معرفة تعبد الكون لله ومعرفة له وخضوعه

وبيان أصالة الحق فيستأنس به من يحمل الحق غريباً بين العصاة .. ليظهر أن الحق أصيل وأن الباطل والانحراف طارئ وشاذ، ولا قرار له ولا قيمة وإن بدا منتفشاً.

هذا المقصد ذو أهمية، وهو منتشر في الآيات الكريمة وبالاستقراء يظهر هذا المقصد جيداً. فقد عرض سبحانه وتعالى هذا الكون عارفاً بالله عبداً له فقد أخبر عنه بأنه:

طائع: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١].

وأنه مُسَبِّحٌ: ﴿ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وأنه ساجد: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلًا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [الرعد: ١٥].

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٩].

وفي الحديث: عن أبي ذر قال: كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد حين وجبت الشمس فقال: «يا أبا ذر تدري أين تذهب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربه عز وجل فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها وكأنها قد قيل لها ارجعي من حيث جئت فترجع إلى مطلعها فذلك مستقرها ثم قرأ: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾<sup>(١)</sup>.

وأنه مُصَلِّيٌّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفْنَ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور: ٤١].

وأنه قانت: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ [البقرة: ١١٦].

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ [الروم: ٢٦].

فهذه السياقات كلها تقرر أن الإقرار بربوبية الله وتأله كل ذرة في الوجود له وافتقارها إليه وانقيادها لأمره هو الأصل والمركز في فطرة الوجود كله ..

فالانحراف عن دين الله والخروج عن عبوديته وشريعته والتعلق بسواه هو طارئ وشاذ ولا بقاء له. فلا يستوحش مؤمن .. لا يستوحش سالك إلى ربه.

ولا يشك أحد في ظهور دين الله .. أو يتقبل أحد وسواساً أو خطاباً منهزماً أن الإسلام انتهى دوره أو لا أمل في قيامه وتمكينه.

فهذه الظنون كاذبة وهذا الخطاب كاذب لأنه يستلزم الجحود لله.

(١) مسند أحمد بن حنبل، ج ٥، ص ١٥٢، رقم ٢١٣٩٠، تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

فإن من شأن الله رب العالمين إحقاق الحق، لأن الحق هو الأصل في هذه الحياة وليس الباطل، وأن الله تعالى يدفع الباطل بالحق، وهذا من أدلة صدق رسله.

وانظر إلى هذا الرد على من قال بافتراء الرسالة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ نَشَاءُ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤].

فكان الرد أن من أدلة بطلان هذا الادعاء، ومن أدلة صدق هذه الرسالة هو إحقاقها، لأن من شأن الله تعالى إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وإلا يلزم الجحود لوجوده تعالى (١)، فقال: ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾، فهذا شأنه تعالى، فانظروا هل سيكون الظهور والتمكين والعلو لما أرسل به محمد ﷺ أو لما أنتم عليه من الباطل .. فلو كان محمد مبطلاً لمحي الله تعالى ما جاء به، ولو كنتم أنتم المبطلين فسيمحو الله تعالى ما أنتم عليه .. والمحق منكم ومنه سيحقه الله تعالى في الحياة بالنصر المادي، وإحقاق الرسالة بظهورها كما قال في الأنفال: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

ولهذا يأمر الله تعالى بالتربص: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣١].

وبالانتظار: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ (١٦١) ﴿وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ (١٦٢) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢١ - ١٢٣].

وبالتربص: ﴿وَأَرْتَبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣]، مع الثقة في الله تعالى.

وهذا كله كما يكسب المؤمن الثقة بكسبه الأُنس وعدم الاستيحاش ..

\* \* \*

(١) كما احتج ابن القيم رحمه الله تعالى على النصارى بتمكين الله تعالى المسلمين منهم قروناً متطاولة وأن هذا لصحة الرسالة وتأيد الله تعالى لها ولحملتها وإلا لزمكم أن الله تعالى يؤيد الباطل وينصره على الحق وهذا باطل أو يلزمكم جحود وإنكار وجوده تعالى، ونحن نستدل بهذا المأخذ على انتصار الإسلام وأن المستقبل له وأنه لن ينتهي من الأرض كما يتمنى جموع الكفار بل هو مشرف على دورة تمكين جديدة بإذن الله تعالى ( ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار).

## المقصد الخامس

## الإيناس في التعبد لله تعالى وسط كون زاخر ومشغول بالعبودية

وهو ملازم للمقصد السابق لكن آثرنا إفراده لتمييزه، فانظر في آيات الكتاب العزيز والتي تعرض الكون المسيح الخاشع والقانت والمطيع والمصلي .. فقد انفعَل بهذا المؤمنون، فعرض ربنا سبحانه لحظات هامة في تاريخ البشرية كان المؤمن يتعبد مصطفياً بين الجبل والطير كل منهم يعبد الله، وهذه حقيقة موجودة .. كون الجميع يتعبد له تعالى .. لكن الرائع في هذا هو تجاوبهم في تسبيح وترجيع واحد يتفاعلون به معاً.

وهذا في قصة داود عليه السلام: ﴿أَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَذْكَرَ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٧-١٩].

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۗ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۗ وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۗ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: ٧٩].

يقول الأستاذ سيد قطب: «وقد مضى في سورة البقرة بدء قصة داود، وظهوره في جيش طالوت، في بني إسرائيل - من بعد موسى - إذ قالوا للنبي لهم: ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله. فاختار لهم طالوت ملكاً. ولقي بهم عدوهم الجبار جالوت وجنوده. وقتل داود جالوت. وكان إذ ذاك فتى. ومنذ ذلك الحين ارتفع نجمه حتى ولي الملك أخيراً؛ وأصبح ذا سلطان. ولكنه كان أواباً رجاعاً إلى ربه بالطاعة والعبادة والذكر والاستغفار.

ومع النبوة والملك آتاه الله من فضله قلباً ذاكراً وصوتاً رخيماً، يرجع به تراتيله التي يمجد فيها ربه. وبلغ من قوة استغراقه في الذكر، ومن حسن حظه في الترتيل، أن تزول الحواجز بين كيانه وكيان هذا الكون. وتتصل حقيقته بحقيقة الجبال والطير في صلتها كلها ببارئها، وتمجيدها له وعبادتها. فإذا الجبال تسبح معه، وإذا الطير مجموعة عليه، تسبح معه لمولاه ومولاه.

ولقد يقف الناس مدهوشين أمام هذا النبأ .. الجبال الجامدة تسبح مع داود بالعشي والإشراق، حينما يخلو إلى ربه، يرتل ترانيمه في تمجيده وذكره. والطير تتجمع على نغماته لتسمع له وترجع معه أناشيده .. لقد يقف الناس مدهوشين للنبأ إذ يخالف مألوفهم، ويخالف ما اعتادوا أن يحسوه من العزلة بين جنس الإنسان، وجنس الطير، وجنس الجبال!

ولكن فيم الدهش؟ وفيم العجب؟ إن لهذه الخلائق كلها حقيقة واحدة.

وراء تميز الأجناس والأشكال والصفات والسمات .. حقيقة واحدة يجتمعون فيها ببارئ الوجود كله: أحيائه وأشياءه جميعاً<sup>(١)</sup>.

ويقول: «وتهميم روحه في ظلال الله في هذا الكون ومجاليه ومخلوقاته الجوامد منها والأحياء. فيحس ترجيعها، ويتجاوب معها كما تتجاوب معه. وإذا الكون كله فرقة مرتلة عازقة مسبحة بجلال الله

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، سورة ص.

وحمده. ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤] .. إنها يفقهه من يتجرد من الحواجز والفواصل، وينطلق مع أرواح الكائنات المتجهة كلها إلى الله<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

بعض ما ورد في السنة من معرفة الكون لهذا الدين وتجاوبه معه .. وذكر بعض دلالات النبوة:

فهكذا روي عن رسوله الكريم ﷺ .. فقد أورد ابن كثير في "الدلائل" تسبيح الحصى في كفه ﷺ، ثم في كف أبي بكر، ثم في كف عمر، والصحابة يسمعون تسبيحه ..

يقول رحمه الله: « قال الحافظ أبو بكر البيهقي أنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان أنا أحمد بن عبيد الصفار ثنا الكديمي ثنا قریش بن أنس ثنا صالح بن أبي الأخضر عن الزهري عن رجل يقال له سويد ابن يزيد السلمی قال: سمعت أبا ذر يقول: لا أذكر عثمان إلا بخير بعد شيء رأيتك كنت رجلاً أتبع خلوات رسول الله ﷺ فرأيتك يوماً جالساً وحده، فاغتنمت خلوته، فجئت حتى جلست إليه، فجاء أبو بكر فسلم عليه ثم جلس عن يمين رسول الله ﷺ ثم جاء عمر فسلم وجلس عن يمين أبي بكر ثم جاء عثمان فسلم وجلس عن يمين عمر ..

وبين يدي رسول الله ﷺ سبع حصيات أو قال تسع حصيات فأخذهن في كفه فسبحن حتى سمعت لهن حينئذ كحنين النخل ثم وضعهن فخرسن ثم أخذهن فوضعهن في كف أبي بكر فسبحن حتى سمعت لهن حينئذ كحنين النخل ثم تناولهن فوضعهن في يد عمر فسبحن حتى سمعت لهن حينئذ كحنين النخل ثم وضعهن فخرسن ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان فسبحن حتى سمعت لهن حينئذ كحنين النخل ثم وضعهن فخرسن فقال النبي ﷺ: «هذه خلافة النبوة»، قال البيهقي وكذلك رواه محمد بن يسار<sup>(٢)</sup>..

\*\*\*

وروى البخاري عن أنس ﷺ قوله: "كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل".

قال البخاري حدثني محمد بن المثني حدثنا أبو أحمد الزبيري حدثنا إسرائيل عن منصور عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تحويهاً كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقل الماء فقال: «اطلبوا فضلة من ماء». فجاءوا بإناء فيه ماء قليل فأدخل يده في الإناء ثم قال: «حي على الطهور المبارك والبركة من الله». فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل<sup>(٣)</sup>.

\*\*\*

- وانظر إلى تجاوب الكون مع هذا الدين:

فقد روى بعض التابعين أنه مر بغابة فوجد فيها قرداً وقردة قد زنيا، فاجتمعت القردة ورجمتها بالحجارة.

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، سورة الأنبياء.

(٢) البداية والنهاية، ج ٦، ص ١٣٢.

(٣) صحيح البخاري، ج ٣، ص ١٣١٢.

- وانظر إلى حنين الجذع لكلام رسول الله وللذكر، فبكى بكاء الصبي حتى نزل رسول الله وضمه إليه حتى سكن قال ابن كثير - رحمه الله - في كتاب "الدلائل" من كتاب "البداية والنهاية"، باب "حنين الجذع شوقاً إلى رسول الله وشغفاً من فراقه" وقد ورد من حديث جماعة من الصحابة بطرق متعددة تفيد القطع عند أئمة هذا الشأن وفرسان هذا الميدان.

الحديث الأول عن أبي بن كعب:

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي - رحمه الله - حدثنا إبراهيم بن محمد قال أخبرني عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال: كان النبي ﷺ يصلي إلى جذع نخلة إذ كان المسجد عريشاً وكان يخطب إلى ذلك الجذع. فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله هل لك أن نجعل لك منبراً تقوم عليه يوم الجمعة فتسمع الناس خطبتك. قال: «نعم»، فصنع له ثلاث درجات هن اللاتي على المنبر فلما صنع المنبر ووضع موضعه الذي وضعه فيه رسول الله ﷺ بدا للنبي ﷺ أن يقوم على ذلك المنبر فيخاطب عليه فمر إليه فلما جاوز ذلك الجذع الذي كان يخاطب إليه خار حتى تصدع وانشق فنزل النبي ﷺ لما سمع صوت الجذع فمسحه بيده ثم رجع إلى المنبر فلما هدم المسجد أخذ ذلك الجذع أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه فكان عنده حتى بلي وأكلته الأرضة وعاد رفاتاً. وهكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل عن زكريا بن عدي عن عبيد الله بن عمرو الرقي عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل عن أبي بن كعب فذكره وعنده: فمسحه بيده حتى سكن ثم رجع إلى المنبر وكان إذا صلى صلى إليه والباقي مثله وقد رواه ابن ماجه عن إسماعيل بن عبد الله الرقي عن عبيد الله بن عمرو الرقي به.

الحديث الثاني عن أنس بن مالك:

قال الحافظ أبو يعلى الموصلي ثنا أبو خيثمة ثنا عمرو بن يونس الحنفي ثنا عكرمة بن عمار ثنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة حدثنا أنس بن مالك أن رسول الله كان يوم الجمعة يسند ظهره إلى جذع منصوب في المسجد يخاطب الناس فجاءه رومي فقال: ألا أصنع لك شيئاً تقعد عليه كأنك قائم فصنع له منبراً درجتان ويقعد على الثالثة فلما قعد نبي الله على المنبر خار كخوار الثور ارتج لخواره حزنا على رسول الله فنزل إليه رسول الله من المنبر فالتزمه وهو يخور فلما التزمه سكت ثم قال: «والذي نفس محمد بيده لو لم التزمه لما زال هكذا حتى يوم القيامة حزنا على رسول الله»، فأمر به رسول الله ﷺ فدفن وقد رواه الترمذي عن محمود بن غيلان عن عمر بن يونس به وقال صحيح غريب من هذا الوجه.

طريق أخرى عن أنس:

قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده ثنا هذبة ثنا حماد عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ أنه كان يخاطب إلى جذع نخلة فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن فجاء رسول الله ﷺ حتى احتضنه فسكن وقال: «لو لم احتضنه لحن إلى يوم القيامة»، وهكذا رواه ابن ماجه عن أبي بكر بن خلاد عن بهز بن أسد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس وعن حماد عن عمار بن أبي عمار عن ابن عباس به وهذا إسناد على شرط مسلم<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

- وانظر إلى إمساك الماء للعلاء بن الحضرمي بدعائه: (يا عليم يا حلیم يا عليّ يا عظیم)، حتى مر بجيشه على الماء لملاقاة الفرس.

- وانظر إلى كون النار بردًا وسلامًا على إبراهيم عليه السلام .. ثم على أبي مسلم الخولاني صاحب رسول الله ﷺ.

- وانظر إلى الشمس تقف ليوشع بن نون<sup>(١)</sup> وهو يقول أنت مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علينا فحبست عليهم ساعة حتى فتح لهم.

\* \* \*

- وانظر إلى قصة الذئب الذي شهد بالرسالة لرسول الله لما تكلم لراعي غنم، يقول ابن كثير - رحمه الله - في "الدلائل" تحت هذه الترجمة: «قصة الذئب وشهادته بالرسالة:

قال الإمام أحمد حدثنا يزيد ثنا القاسم بن الفضل الحداني عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: عدا الذئب على شاة فأخذها فطلبه الراعي فانتزعها منه فأقعى الذئب على ذنبه فقال: ألا تتقي الله تنزع مني رزقًا ساقه الله إليّ. فقال: يا عجب ذئب يكلمني كلام الإنس، فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك محمد ﷺ يبثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق. قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره فأمر رسول الله ﷺ فنودي الصلاة جامعة ثم خرج فقال للراعي: «أخبرهم»، فأخبرهم فقال رسول الله ﷺ: «صدق والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الأنس ويكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله ويخبره فخذ به أحدث أهله بعده»، وهذا إسناد على شرط الصحيح وقد صححه البيهقي ولم يروه إلا الترمذي من قوله: والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس إلى آخره عن سفيان بن وكيع عن أبيه عن القاسم بن الفضل ثم قال وهذا حديث حسن غريب صحيح لا نعرفه إلا من حديث القاسم وهو ثقة مأمون عند أهل الحديث وثقه يحيى وابن مهدي<sup>(٢)</sup>.

طريق أخرى عن أبي سعيد الخدري:

قال الإمام أحمد حدثنا أبو اليمان أنا شعيب حدثني عبد الله بن أبي حسين حدثني شهر أن أبا سعيد الخدري حدثه عن النبي ﷺ قال: بينا أعرابي في بعض نواحي المدينة في غنم له عدا عليه ذئب فأخذ شاة من غنمه فأدركه الأعرابي فاستنقذها منه وهجهجه فعانده الذئب يمشي ثم أقعى مستذفرًا بذنبه يخاطبه فقال: أخذت رزقًا رزقنيه الله. قال: واعجبا من ذئب مستذفر بذنبه يخاطبني. فقال: والله إن لترك أعجب من ذلك. قال: وما أعجب من ذلك. قال: رسول الله ﷺ في النخلتين بين الحرتين يحدث الناس عن أنباء ما قد سبق وما يكون بعد ذلك. قال: فنقع الأعرابي بغنمه حتى ألجأها إلى بعض المدينة ثم مشى إلى النبي ﷺ حتى ضرب عليه بابه فلما صلى النبي ﷺ قال: «أين الأعرابي صاحب الغنم»، فقام الأعرابي. فقال له النبي

(١) نبي بعد موسى، وقيل أنه كان فتاه المذكور في قصة الخضر في سورة الكهف، بُئىء بعد وفاة موسى عليه السلام .

(٢) قال الألباني في "السلسلة الصحيحة" ١ / ١٩٠: قلت: وهذا سند صحيح رجاله ثقات رجال مسلم غير القاسم هذا وهو ثقة اتفاقًا، وأخرج له مسلم في المقدمة. والحديث أخرجه ابن حبان (٢١٠٩) والحاكم مفرقا (٤٦٧/٤-٤٦٨) وقال: صحيح على شرط مسلم! ووافقه الذهبي!.

ﷺ: «حدث الناس بما سمعت وبما رأيت»، فحدث الأعرابي الناس بما رأى من الذئب وما سمع منه فقال النبي ﷺ: «عند ذلك صدق آيات تكون قبل الساعة والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يخرج أحدكم من أهله فيخبره نعله أو سوطه أو عصاه بما أحدث أهله بعده»، وهذا على شرط أهل السنن ولم يخرجوه. حديث أبي هريرة في ذلك:

قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنا معمر عن أشعث بن عبد الملك عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: جاء ذئب إلى راعي غنم فأخذ منها شاة فطلبه الراعي حتى انتزعها منه. قال: فصعد الذئب على تل فأقعى فاستدفر. وقال: عمدت إلى رزق رزقيه الله عز وجل انتزعته مني. فقال الرجل: لله إن رأيت كالיום ذئبًا يتكلم. فقال الذئب: أعجب من هذا رجل في النخلات بين الحرتين يجبركم بما مضى وما هو كائن بعدكم وكان الرجل يهوديًا فجاء إلى النبي ﷺ فأسلم وخبره فصدقه النبي ﷺ ثم قال رسول الله: «إنها أمانة من أمارات بين يدي الساعة قد أوشك الرجل أن يخرج فلا يرجع حتى تحدته نعله وسوطه بما أحدثه أهله بعده»، تفرد به أحمد وهو على شرط السنن ولم يخرجوه ولعل شهر بن حوشب قد سمعه من أبي سعيد وأبي هريرة أيضًا والله أعلم<sup>(١)</sup>.

- وانظر إلى عشرات المواقف والقصص يتجاوب هذا الكون مع حملة هذا الدين.

\* \* \*

لكن هنا نقطة نختم بها بقصد التوازن:

برغم هذا، فهذا الكون له عبودية يؤديها، وهي دَوْرُهُ، فمع تسبيحه له دور لا يخرج عنه وهو التزامه بالقوانين الإلهية التي ألزمه الله بها: ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۖ ﴿ [الأعلى: ٣]، ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آتِلُ سَابِقَ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠].

وهذه القوانين جادة ليست هازلة .. وعلى المسلم أن يعرفها بالطرق التي فطرنا عليها وأمرنا بها فقد قال النبي ﷺ لأحد أصحابه: «إن الله تعالى يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس (الكيس العقل) فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل»<sup>(١)</sup>. وفي رواية المعجم: «إن الله عز وجل ليلوم على العجز فأئيل من نفسك الجهد، فإن غلبت فقل: توكلت على الله أو حسبي الله ونعم الوكيل»<sup>(٢)</sup>.  
على المسلم التجربة والاكتشاف والمحاولة لتسخيره على وفق منهج رب العالمين.

ولابد من حمل المنهج الشرعي والتعامل الجاد مع الكون وقوانينه لامتلاك القوة، فالكتاب يهدي، والقوة تنصر: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ بَصْرِهِ. وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقوام الدين بكتاب يهدي وسيف ينصر: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣١].

وإن فرط المسلمون في العلم أثموا، وإن فرطوا في القوة أثموا، لأن العلم والقوة فريضة. وقبلهما الإيمان والتوجه لله وحده، والطاعة لله وحده لأن تلقي التشريع من الله وحده، والحب والتعظيم له بلا شريك.

\*\*\*

(١) سنن أبي داود، ج ٢، ص ٣٣٧.

(٢) المعجم الكبير، ج ٨، ص ٩٥.

كلمة أخيرة:

إن الله تعالى يعرض الكون في كتابه على النحو الذي أسلفنا:  
ليتعرف العبد من النظر إليه على ربه وخالقه وعلى صفاته تعالى ..  
وليكون حجة على وجوب تفرده تعالى بالألوهية والعبادة والطاعة والتشريع .. فيفرد الله تعالى  
بحقه الخالص.

وليكون حجة على أمر الآخرة وقيام الساعة فيوقن ويستعد ويعمل ويزهد فيها هاهنا.  
وليعرف به أصالة الحق وامتداده .. فيوقن بها معه وأن الله تعالى ناصره.  
وليأتنس به في عبادته لله تعالى.  
هكذا يُعرض وهكذا يتلقاه المؤمن ..

أما مجرد الاستمتاع به في مشاهد الجمال للترويح عن النفس وحسب .. أو للتغزل على مذهب  
العشاق .. والوقوف عند هذا الحد، فهذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦) يَعْلَمُونَ  
ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿ [الروم: ٦-٧]، فهي قشرة ظاهرة لم يفهم سواها، ولم يفهم  
عمقها وما وراءها، فهمها سُمي فنانًا أو مبدعًا فهو هو .. لم يعلم إلا قشرة بسيطة جدًا، حتى وإن كان  
رفيق الطبع والحس، فهو يستوي مع غليظ الحس في نهم الدنيا لكن يختلفان في أوجه الاستمتاع .. فلم  
يزل: جاهلاً، ولا يعلم، ولم يزل يعلم ظاهرًا ولا يعلم الحقيقة .. طالما لم يعرف ربه ولم يؤد خالص حقه  
له ولم يصلح له حاله ولم يُخَفِ الآخرة ويوقن بها ويغير حياته من أجلها ولم يعرف أصالة الحق ولم يأخذ  
دوره ومكانه في التعبد وسط هذه الجموع المصلية من الطير إلى الوحش إلى قطرة الندى إلى موج البحار  
إلى الحيتان في الأعماق إلى النجم إلى الشجر إلى الحصى .. إلى الملائكة الكرام.  
إن الله تعالى يعرض في كتابه هذا الكون بجماله ويلفت أنظارنا للجمال:

فيأمرنا بالنظر إلى جمال الثمار والأزهار: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩].

ويأمرنا بالنظر إلى جمال الألوان في الثمار وفي الدواب وفي الآدميين: ﴿الْقَرَّتْ أَنْ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ  
مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيدٌ سُودٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ  
النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿ [فاطر:  
٢٧-٢٨].

فالنظر فيه وفي جماله أمر مقصود شرعًا.

كذلك النظر إنما هو بطريقة فطرية وبديهية وبسيطة وسهلة ومباشرة كمثل هذه الآيات: ﴿أَفَلَا  
يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ  
سُوِّجَتْ ﴿ [الغاشية: ١٧-٢٠].

وليست طريقة سفسطة أو فلسفة ملتوية أو معقدة .. هذه البساطة مقصودة وأؤكد عليها بيانا  
لطبيعة المأخذ ..

النظر إلى الكون وجماله وبهائه وهذه الطريقة الفطرية يجب أن يؤدي إلى معرفة الله وعظمته وأن يعقبه التسبيح: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحُكَ﴾، وهذا التسبيح يعني تنزيهه تعالى عن الشرك سواء في الوصف أو في العمل والعبادة، ويؤدي إلى معرفة الآخرة وتذكر النهاية والاستعداد لها ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، فوقع الاستدلال بهذا النظر على عبادة الله والإيمان باليوم الآخر.

ويجب كذلك ألا يبقى التفكير والنظر في إطار الفكر فقط بل يجب أن يتحول إلى عمل وواقع .. وهو الإيمان: بالتصديق بالله تعالى وبخبره على السنة رسله، وبإفراده تعالى بالخضوع والطاعة: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا﴾.

بل وواقع جاد جدًا لم يكتفوا فيه بصلاح نفوسهم بل قاوموا الانحراف والباطل وصبروا على تبعات ذلك: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

كل هذا من التفكير الصحيح الذي يؤدي إلى الذكر والعلم والرحيل للآخرة والعمل والإصلاح في الأرض .. ولنقرأ الآيات: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحُكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۗ ﴿١١١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مِنْ تَدْخِيلِ النَّارِ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۗ ﴿١١٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْآبَتَارِ ۗ ﴿١١٣﴾ رَبَّنَا وَءَايَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۗ ﴿١١٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِي بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ۗ ﴿١١٥﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩٥].

هكذا يتفكر المؤمن .. يعلم بالله ويوقن بالآخرة فيعبد الله وحده ويصلح حياته وحياته الخلق، ويوقن بأصالة الحق الذي يحمله ويراه في فطرة الوجود وفطرة نفسه، ويأنس بهذا الوجود العابد المطيع الخاشع القانت المسبح المصلي فيتعبد لربه وسط زخم عابد لله تعالى ..

هكذا يتفكر المؤمن .. وهكذا يقرأ القرآن ..

نسأل الله تعالى أن يفتح علينا من فضله الكريم ..

وصل اللهم وسلم وبارك على أكرم الخلق محمد

وعلى آله وصحبه وسلم ..